محمد ابراهيم مصطفى
(أبو إسلام)

الْمُتَفَــوِّقُــونَ
فِي مَدْرَسَةِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ

(صلى الله عليه وسلم)

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولى - القاهرة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

حقوق الطبع محفوظة

تحذيــــر

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر أو المؤلف.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

تُطْلَبُ الْكُتُبُ مِنْ مَكْتَبَةِ وَهْبَه ١٤ ش الجمهورية - عابدين - القاهرة ٣٩١٧٤٧٠

أو من المؤلف : ١٧ ش عبد العزيز جاويش - المهندسين ت ٣٠٢٨٣٨٩ - ٣٠٥٢٤١٦ موبايل : ٠١٠١٤٦٧٠٣٩

" الإهـــــداء "

إلى الذين خدعتهم المدنية الزائفة وجذبتهم طموحاتهم إلى حضارة الغرب التي فاقت كل تصوراتهم ، وإلى الذين ارتشفوا من علوم العصر الحديث ، وارتقوا إلى مستوى معجزات التكنولوجيا والكمبيوتر ، وعلوم الفضاء ، حتى وصلوا إلى تجارب " الاستنساخ " التي أذهلت العالم .. ثم وقف الجميع مبهورين .. وكأنهم يبحثون عن ضالة منشودة أخرى غير كل ما وصل إليه العلماء.. يبحثون عن شيء آخر غير مادّي يحتاجون إليه في داخلهم ، شيء معنوي أو أدبيّ أو روحيّ ، يشرح لهم الصدور وينير لهم الطريق ، إلى الحقيقة التي نسيها الكثيرون في هذا العصر ، حقيقة الإجابة على السؤال الذي طالما رددته الألسنة على مدى التاريخ ، ولم يصل إلى معرفة الإجابة إلاّ القليلون ممن هداهم الله . السؤال الحائر الذي يقول :

ما هي الحياة ، وما قيمتها ، وما نهايتها ، وماذا بعدها ، وماذا يخرج الإنسان به منها ، وكيف يجب على الإنسان أن يعيشها ، وكيف يستطيع الإنسان أن يسعد فيها ، وماذا له فيها ، وماذا عليه لها ؟؟!!.. هذا هو السؤال الذي يشغل إنسان هذا العصر ، حتى لو لم ينطق به لسانه !!..

إلى كل هؤلاء الحائرين ، أقدّم كتابي هذا ليعرفوا حقيقة الحياة كما عرفها القليلون السابقون الذين عرفوا الله واتقوه، فعلّمهم الله وملأ صدورهم وقلوبَهم بالعلم والحكمة ، فاطمأنت قلوبُهم إلى أن الدنيا بكل ما فيها لا تساوي جناح بعوضة ، فهانت أمامهم فباعوها ليغنموا بثمنها حياة أفضل وأعظم .. تلك الحياة الخالدة ذات النعيم الأبديّ الذي وعد الله به المتقين .

أولئك القليلون الفائزون هم الذين درسوا وتخرّجوا في مدرسة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ودانت لهم الدنيا بحذافيرها ، فما غرّتهم ولا أسرتهم ولا

استعبدتهم ، بل كانوا أسيادها ووطأوها بأقدامهم ، فنجحوا وأفلحوا ، وكانوا حقًا من المتفوقين .

إلى كل من يتمنى أن يفوز كفوزهم ، وأن يحظى بأجر كأجرهم ، وأن يكون مصيره في الآخرة كمصيرهم .. أهدي كتابي هذا .. لعلهم يصبحون أيضًا من " المتفوقين " !!..

محمد ابراهيم مصطفى

(أبو إسلام) .

المُقَدِّمَة

إن المدرسة التي أسسها نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هي أعظم المدارس على الإطلاق ، وعلى مدى التاريخ كله ، إن مؤسس هذه المدرسة ، الذي اصطفاه الله وفضّله على سائر خلقه من البشر ، استطاع رغم أميته أن يربّي جيلاً عظيمًا من الرّواد ، حيث نقلهم من أحاسيس البشرية الضيقة إلى مشاعر الرّبانية الواسعة .

لم تكن لهذه المدرسة فصول كالتي نراها في مدارس هذه الأيام ، ولكن كانت لها قاعة كبيرة هي ساحة المسجد ، ولم تكن المدرسة لفئة معينة من الناس ، ولكنها كانت لجميع المؤمنين ، رجالاً ونساء ، كبارًا وصغارًا ، ليست أهدافهم شهادات على الورق تمكّنهم من المناصب الدنيوية ، ولكن كانت أهدافهم شهادات بالإيمان تسجلها لهم الملائكة ، وتشهد لهم بالإسلام والإيمان والإحسان ، فتنفعهم في الدنيا بإحسانِهم كما تنفعهم في الآخرة بإيمانِهم ، فتخرّجوا من هذه المدرسة الإيمانية على أعلى درجات الامتياز وكانوا حقًا من المتفوقين .

إن هذا الجيل الذي تربّى في المدرسة المحمدية كان جيلاً مؤمنًا محسنًا يعبد الله كأنه يراه ، شجاعًا زاهدًا يركل الدنيا بقدمه ، لاتستهويه بمباهجها ، بل تناديه الآخرة بنعيمها ، كان جيلاً كريمًا في سخاء ، لا يحرص على مال ، لأنه كان يؤمنُ بأن المال مال الله ، فكان ما يعطيه في سبيل الله أحب إليه مما يستبقيه لنفسه أو لأهله ، كان جيلاً مقيمًا للصلاة محافظًا على أوقاتها ، خاشعًا في أدائها في الصحة والمرض ، وفي السلم والحرب .. هذا الجيل الذي تلقّى الأمانة وصانها وسلّمها من بعده في وفاء وإخلاص لم تشهد الدنيا لهما نظيرًا على مدى التاريخ .. ولو أن الأجيال المتعاقبة صانت الأمانة كما صانها جيل المتفوقين في المدرسة المحمدية لما وصل حال المسلمين إلى ما هو عليه الآن من تخلف وضعف وهوان .

ذلك الجيل العظيم عرف حقيقة الدنيا فزهدها ولم يطلبها ، وعرف حقيقة الآخرة فأحبها وطلبها ، وباع الدنيا بالآخرة فكان من الفائزين .. وإذا كانت الأجيال الحالية تحتاج إلى قدوة طيبة " وما أشد حاجتها لذلك " فليس أمامها إلاّ أن تقتدي بجيل المدرسة المحمدية الذي عمل لله وأحب في الله وأبغض في الله ، فدانت الدنيا لهم ، وارتفعت في السماء أعلامهم وزاد عند الله قدرهم ، وزالت من الفانية أعمارهم ، وخلدت في الباقية أرواحهم !!..

أيها الإخوة والأخوات والأبناء والبنات من أمة محمد بن عبد الله .. لا يغرّنكم تقدّم المجتمعات الغير إسلامية بما فيها من ديمقراطية وحرية وبعض السلوكيات الطيبة ، فهذه الفضائل كلها اقتبسوها من فضائل الإسلام التي لو أخذنا بها واتّبعنا الصالحين من أسلافنا لكان تقدّمنا أكبر وأعظم .. فارجعوا إلى دينكم واسترشدوا بقرآنكم واهتدوا بهدي نبيكم واقتدوا بالصالحين من أسلافكم .. تضمنوا من شرور الدنيا نجاتكم ، وتزيدوا من رصيد الآخرة حسناتكم ، وتصبحوا أيضًا من المتفوقين .

وإني لأنصح كل مسلم يرجو رضوان الله أن يقرأ بين الحين والحين عن سيرة رسول الإسلام وعن سيرة صحابته الأجلاّء ، وأن يعاود القراءة كلما ضاقت نفسه بمتاعب الحياة ، فينشرح صدره ويلين قلبه وتهون عليه الأهوال .. كما أنصح كل مسلم أن يشجّع أبناءه وبناته على قراءة هذه السير العطرة ، حتى ينقذهم من ضلالات ما يقرأون ومن آفات ما يسمعون ويشاهدون ، لعل الله تعالى يوفقهم وإلى طاعة الله يُقبِلُون وإلى حظيرة الإيمان يعودون ، في زمن نسي أو تناسى فيه المسلمون أمجادهم وماضيهم وتراثهم العريق .

وفقنا الله وإياكم إلى سبيل الرشاد ، ونسأله تعالى أن يتقبل منا صالح العمل ، وأن يعصمنا بعصمته من الزلل ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

المؤلف

باسم الله الرحمن الرحيم

مُـــدِيـــرُ الْمَـــدْرَسَـــةِ الْمُـــحَـــمَّـــدِيَّـــةِ

إذا كنا في هذا الكتاب سنتحدث عن المتفوقين في مدرسة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعن تاريخهم ومناقبهم وأخلاقهم وعمق إيمانهم والعوامل التي أدّت إلى تفوقهم في هذه المدرسة المحمدية ، فمن المنطق والعدل أن نتحدث أولاً عن مدير هذه المدرسة التي خرّجت هؤلاء العمالقة ، ذلك المدير والمؤسس الذي استطاع أن يعطي القدوة والمثل الأعلى لتلاميذه فأصبحوا مصابيح تنير الدنيا بعلمهم ونور إيمانهم .

فمن هو مدير هذه المدرسة ؟!.. إنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم النبي الأمّي الذي أودع فيه رب العزة من الكمالات ما لم يودعها أحدًا غيره .. إن أية صورة من صور الكمال المتعددة التي قد نرى بعضها في أحد المتفوقين في المدرسة المحمدية ، لابد أن يكون منبعها في شخصية الأستاذ الذي أخذ منه تلميذه .. وهكذا نجد أن كل ما عرفناه من صور الكمالات المتعددة في أشخاص المتفوقين في هذه المدرسة قد تجمعت في نبي الأمة الإسلامية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وكما يقول علماء الاجتماع إن فاقد الشيء لا يعطيه ، فإننا بالقياس نقول : إن المتحلّي بالكمال يعطيه ، فما بالنا بمن جمع الله له الكمالات كلها ممثلة في النبوّة ، فالعظمة التي نراها في سلوكيات الرسول الكريم وأخلاقه هي المعجزة التي لم تعرف الإنسانية مثلها على مدى التاريخ ، ولن ترى مثلها إلى أن ينتهي التاريخ .

وكما يقول الكاتب الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى محمود : كان محمد ذاته كسلوك وخُلُق وسيرة هو المعجزة التي تسعى على الأرض .

فأن تبلغ الكمال في صفة واحدة فتنجز فيها وتتفوق فيها على أقرانك ، فهذه هي العبقرية ، وأن تبلغ الذروة في الخطابة ، فأنت " ديموستن " .. وأن تبلغ الذروة في الزعامة فأنت "بركليس " .. وأن تبلغ الذروة في الحكمة فأنت" لقمان " وأن تبلغ القمة في فنون الحرب فأنت " نابليون " .. وأن تبلغ الذروة في التشريع فأنت " سولون

" .... أما أن تكون كل هؤلاء ، وأن تمنحك الأيام كل صفة فتبلغ فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجاز بعينه .. وإذا حدث فإنه لا يُفَسَّرُ إلاّ بأنه نبوّة وعون من الله الوهاب وحده .

كان عليه الصلاة والسلام إذا تحدث تقوقع أمامه أبلغ البلغاء ، وإذا تكلم كان أفصح الفصحاء .. لم يكن ينطق عن الهوى ، ولكنه وحي يوحى .. وكل فضيلة رأيناها في أحد أتباعه كانت مأخوذة منه ، فقد جمع بين العبادة في خشوع وتبتل ، والقتال في بطولة وثبات ، والتخطيط في دقة وبعد نظر ، والسياسة في مهارة وإبداع ، والأبوّة في حُنُوّ وملاطفة ، والزوجية في عدل ورحمة ، والصداقة في إخلاص ومودة ، والكرم في سخاء وجود ، والصبر في بشاشة وابتسام .

وقد جمع الله تعالى هذه الكمالات في رسولنا الكريم في قوله تعالى :[وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ]. " ٤ القلم " .

وعندما سُئِلَتْ عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِهِ قالت : " كان خلقه القرآن " .. وقال هو عن نفسه : " أدّبني ربّي فأحسن تأديبي " ، فماذا بعد أن يكون تأديبه من رب العباد ، وبعد أن يكون خُلُقُهُ القرآن ، وبعد أن يصفه خالق الخلق بأنه لعلى خلق عظيم ؟!..

لهذا فلا يكون مستغربًا أن يتخرّج من مدرسته هؤلاء القادة الكبار الذين غيّروا وجه التاريخ وصححوا مسيرة الإنسانية كلها مهتدية بهداية الإسلام الذي يأسر القلوب ويذهل العقول .. وصدق الله إذ يقول : [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا] " ٢١ الأحزاب ".. صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى آلك وصحبك ومن اتّبعك إلى يوم الدين .

ونحن في كتابنا هذا لسنا بصدد الحديث عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحتاج العديد من الكتب ، فموضوع الكتاب هو " المتفوقون في مدرسة محمد بن

عبد الله " ، وقد تناولنا بعض صفاته وأخلاقه إجمالاً ، والتي جعلته الأسوة الحسنة والمثل الأعلى لتلاميذ مدرسته .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما قاله عنه غير العرب من الفلاسفة والكتّاب والمفكرين والمستشرقين ، ومنهم من وفقه الله إلى نعمة الإسلام ، ومنهم من لم ينل هذا التوفيق ، وكما يذكر القول المأثور : " الفضل ما شهدت به الأعداء " ..

فاستمع أيها المسلم إلى ما قاله هؤلاء العمالقة من مفكري وعلماء وحكماء وفلاسفة العالم عن نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حتى تشعر بالفخر والعزة لانتمائك إلى نبي الإسلام !!..

- قال الأديب الإنجليزي الشهير " جورج برناردشو " :

أما أنا فأرى واجبًا أن يُدْعَى محمد " منقذ الإنسانية " ، وأعتقد أن رجلاً مثله لو تولّى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته وأحل فيه السعادة والسلام .

- وقال الأديب الروسي الكبير " ليو تولستوي " :

إن محمدًا هو مؤسس دولة ورسول ، ولقد تحمّل في سنوات دعوته الأولى كثيرًا من اضطهاد أصحاب الديانة الوثنية القديمة وغيرها ، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته ، مع أن محمدًا لم يقل إنه نبي الله الوحيد ، بل اعتقد أيضًا بنبوّة موسى والمسيح ، ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضًا، وقال إن اليهود والنصارى لا يُكْرَهُونَ على ترك دينهم ، بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم !!.. وقال تولستوي أيضًا : ومما لا ريب فيه أن النبي محمدًا كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخرًا أنه هدى أمة بأكملها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام ، وتُؤْثِرُ عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح

لها طريق الرّقيّ والمدنية .. وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلاّ شخص أوتيَ قوة .. ورجل مثل هذا لجدير بالاحترام والإجلال!!..

- وقال المفكر الفرنسي الشهير "جان جاك روسو" صاحب كتاب " العقد الاجتماعي " :

أيها النبي رسول الله ، خذ بيدنا إلى موقف الشرف والفخار ، فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار !!..

- وقال المستشرق الأمريكي " إدوارد وورمسي " :

كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد في أحط الدركات حتى ليصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التي كانت سائدة في كل مكان ، فالفوضى العظيمة التي كان الناس منهمكين فيها في ذلك العصر ، وجرائم الأطفال " يقصد قتلهم خشية الفقر " ، ووأد البنات حيّات والضحايا البشرية التي كانت تقدّم باسم الدين ، والحروب الدائمة التي تنشب آنًا بعد آن بين القبائل المختلفة ، والنقص المستديم في نفوس أهل البلاد ، وعدم وجود حكومة قوية ، كل هذه كانت سببًا في سيادة الهمجية بين الناس وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات ، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها .. قال تعالى : [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] " ٥٩ النحل ".

ويقول نفس المستشرق الأمريكي " إدوارد وورمسي " : وهكذا كانت أحوال شبه جزيرة العرب حينما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ، شارحًا للعالم رسالة الواحد القهّار ، حاملاً بيده اليمنى الهدى والفرقان " يقصد القرآن الكريم " وبيده اليسرى نور المدنية الوضّاء ، لِيُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور .. وهناك بزغ نور فجر جديد كان يُرَى في الأفق ، وبشّرت الأيام بسطوع شمس العرفان ، وزوال سحب

الجهالة المظلمة التي أخفت النور السماوي عن أبصار الناس زمنًا طويلاً ، وأتى اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد ما فُقِدَ من العدل والحرية والتسامح والفضيلة .

- وقال الأديب الإنجليزي المعروف " جوني لوركس " :

لم نعلم مما جاءنا من التاريخ الصحيح أن محمدًا نبي الإسلام قد ارتكب أية رذيلة طوال حياته .

- وقال الكاتب "يوبولد فايس المولود عام١٩٠٠والذي أسلم وسمّى نفسه "محمد أسد" :

منذ ثلاثة عشر قرنًا ، وقف رجل وقال ما معناه " لست سوى بشر، ولكن الله الذي أوجد الكون قد أمرني بأن أحمل رسالته إليكم ، فلكي تعيشوا بصورة تتلاءم والخطة التي أبدع بها العالم ، أمرني بأن أذكّركم بوجوده وقدرته على كل شيء ، وعلمه بكل أمر ، وبأن أضع أمامكم منهاجًا للسلوك ، فإذا قبلتم هذا التذكير فاتبعوني ".. لقد كانت رسالة محمد النبوية هي الدعوة إلى دين الخير والعدل ، إذ يقول الله عز وجلّ : [إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ] " ٢٤ فاطر ".

- وقال الكونت الفرنسي "هنري دي كاستري":(وهو أحد حكّام الجزائر السابقين) يقول في كتابه " الإسلام تأثرات ومباحثات " :

إن أول مسألة دار البحث فيها " أي بينه وبين علماء فرنسا " إنما هي صدق النبي محمد في رسالته ، وقد قلنا إن ذلك الصدق متّفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على وجه التقريب ، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وكون القرآن كتابًا مُنَزّلاً من عند الله ، ولسنا نحتاج في إثبات صدق محمد إلى أكثر من إثبات أنه مقتنع بصحة رسالته وحقيقة نبوّته ، أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل فهو إقامة دين إله واحد ، أي الإيمان بإله واحد مقام عبادة الأوثان التي

كانت عليها قبيلته قبل ظهوره ،فإن ديانة العرب قبل النبي محمد كانت وثنية على وجه العموم .

- وقال البروفيسور "جارسون دي تاسي" : (في كتابه " الإسلام ")

إن محمدًا رسول الإسلام وُلِدَ في حضن الوثنية ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة انزعاجًا عظيمًا من الرذيلة وحُبًّا حادًّا للفضيلة ، وأخلاقًا ونيّة حسنة غير عاديين إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد اسم " الأمين " .

- وقال البروفيسور " كاراديفو" : (في كتابه " المحمدية ")

إن محمدًا أتم طفولته في الهدوء ، ولما بلغ سن الشباب اشْتُهِرَ باسم الشاب الذكي الوديع المحمود ، وقد عاش هادئًا في سلام وحتى بلغ الأربعين من عمره ، وكان بشوشًا نقيًا لطيف المعشر .. إن محمدًا كان هو النبي المُلْهَمُ والمؤسس ، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العالية التي كان عليها .. إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يُطَبَّقُ عمليًا حتى على النبي نفسه .

- وقال اللورد "هدلي" (وكان من كبار الأشراف في بريطانيا ، كما كان سياسيًا ومؤلفًا ، ومن مؤلفاته " رجل من الغرب يعتنق الإسلام "، وقد أعلن إسلامه عام ١٩١٣م وأصبح اسمه " الشيخ رحمة الله الفاروق ") قال :

والأنبياء والرسل قوم اصطفاهم الله واختارهم وفضّلهم على الناس وبعثهم إليهم مبشّرين ومنذرين كما يقول القرآن الكريم [لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ] " ١٦٥ النساء ".. وقد تحققتُ بعد طول البحث والاستقراء أن محمدًا نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لم يكن مدّعيًا ولا دجّالاً كما يدّعي خصومه ، ولكنه كان رسولاً ونبيًا جاء برسالة إلهية صادقة

لا ريب فيها هدىً للمتقين ، أوحى الله بِها وكلفه بتأديتها فجاءت مُخَفِّفَةً لصرامة أحكام التوراة ومكمِّلة لكتاب المسيح عليه السلام .

ويقول اللورد "هدلي" أيضًا : ولقد كتب مستر "بورت سميث" أحد كتّاب المسيحيين رسالة جاء فيها : (إن محمدًا كان موفقًا عظيمًا فريدًا في بابه لم يحدّثنا التاريخ عن مثله ، فقد جمع بين زعامات ثلاث ، هي زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الحكم والسلطان، وجاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، وهي الآن موضع احترام لأكثر من سدس العالم) .

- وقال الأديب والفيلسوف الفرنسي "لامرتين" الذي نافس نابليون الثالث على رئاسة فرنسا :

إن محمدًا أقلُّ من الإله وأعظم من الإنسان العادي ، أي أنه نبي .. ويقول "لامرتين": والنبي أعظم من أن يكون فيلسوفًا .. والخطيب والرسول والمشرّع والقائد، وفاتح أقطار الفكر ، ورائد الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات باطلة ، ومنشئ عشرين دولة في الأرض ، وفاتح دولة واحدة في السماء من ناحية الروح والفؤاد ، فذلكم محمد .. فأي رجل يعمركم قِيسَ بجميع هذه المقاييس التي وُضِعَتْ لوزن العظمة الإنسانية ، كان أعظم من محمد ؟!.. وأي إنسان صعد هذه المراقي كلها فكان عظيمًا في جميعها غير هذا الرجل محمد ؟!..

- وقال العالم الهندي الشهير "ت . ل . فسوائي":

إليك يا محمد ، أُقَدِّمُ إجلالي وتعظيمي بكل خضوع وتكريم ، إليك أُطَأْطِئُ رأسي ، فإنك النبي حقًا من عند الله، وإن قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزليّ الأبديّ .

- وقال المؤرخ الإنجليزي الكبير " ويليام موير " : (في كتابه " حياة محمد "):

لقد امتاز محمد عليه السلام بوضوح كلامه ويُسْرِ دينه ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد .. إن الجزيرة العربية كانت قبل ظهور محمد عليه السلام في أسوأ الأحوال .. وربما لم يكن الإصلاح ميئوسًا منه في أية فترة مضت كما كان في ذلك الحين ، ولكن ما إن ظهر محمد نبي الإسلام حتى هبّت العرب في الحال تلبية للدعوة الروحية الكبيرة الجديدة ، ومن هنا جاء الاعتقاد بأن العرب كانوا مهيئين للإسلام مستعدين لقبوله .. إن حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه "جل وعلا" بألفاظ قليلة بيّن فيها صفة النبي عليه السلام حيث قال : [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينِ] " ١٠٧ الأنبياء ".

- وقال السير "جلال الدين لودر برنتون" (البريطاني الجنسية الذي درس في جامعة أكسفورد) :

اتّجهتُ إلى دراسة سيرة النبي محمد ، ولم أكن أعلم إلاّ القليل النادر مما أدّى للبشرية ، ولكنني علمتُ وأحسستُ أن المسيحيين أجمعوا على إنكار هذا النبي العظيم الذي ظهر في الجزيرة العربية ، وعندئذ قررتُ أن أدرس الأمر بغير تعصب ولا ضغينة ، ولم يمض بي زمن طويل حتى أدركتُ أنه من المستحيل أن يتطرّق الشك إلى جدّية وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله .

- وقال المؤرخ الأوروبي الشهير " جيمس متشنر " :

إن محمدًا رسول الإسلام ، هذا الرجل المُلْهَمُ الذي أقام الدين الإسلامي ، وُلِدَ في حوالي سنة ٥٧١م في قبيلة عربية كانت تعبد الأصنام ، وكان محبًا للفقراء والأرامل واليتامى والأرقّاء والمستضعفين .. وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله ، فقد حطّم الأصنام بيديه،

وأقام دينًا خالدًا يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، كما رفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء .

- وقال الفيلسوف الإنجليزي " توماس كارليل " :(في كتابه " الأبطال وديانة الأبطال "):

أي شيء أكبر دلالة على صدق من يدّعي لك أنه بنّاء ماهر من أن يبني فعلاً بيديه دارًا تقاوم العوادي أكثر من ١٢٠٠عام ، وهي تسع نحو ٢٠٠ مليون من الأنفس ؟!.. كذلك لا شيء أكبر دلالة على صدق نبوّة محمد من أن يؤسس ديانة يجد فيها نحو ٢٠٠مليون من الأنفس " وهذا عدد المسلمين في الوقت الذي كتبت فيه هذه الكلمات " غذاءهم الروحاني ، وتقاوم عوامل التحليل في مدى أكثر من ١٢قرنًا !!..

ويقول " كارليل " أيضًا : محمد هو الذي قال إنه رسول من عند الله ، وبرهن على قوله بدين نشره في الناس أخذه مئات من الملايين ، ومضت عليهم في ذلك قرون طويلة ، وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمّس ، فماذا يُرَادُ من الأدلة على نبوءته بعد ذلك ؟!..

- وقال العالم والكاتب الأمريكي " مايكل هارت " في كتابه " الخالدون مائة " :

لقد اخترت محمدًا في أول هذه القائمة ، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك .. ولكن محمدًا هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستويين الديني والدنيوي ، وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائدًا سياسيًا وعسكريًا ودينيًا ، وبعد ١٣قرنًا من وفاته ، فإن أثر محمد عليه السلام مازال قويًا متجددًا .

وقالت الدكتورة " لورافيشيا فاجليري "(أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي الإيطالية وصاحبة كتاب " دفاع عن الإسلام ") :

إن هناك أدلة قاطعة على صدق الرسول محمد ، وقد حاول أقوى أعداء الإسلام وقد عماهم الحقد ، أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة ، لقد نسوا أن محمدًا كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته ، ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشّمون أنفسهم عناء التساؤل : كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية لو كان هو قبل ذلك رجلاً كذابًا ؟!.. كيف جرؤ على التبشير على الرغم من إهانات مواطنيه إذا لم تكن ثمة قوى داخلية تحثه وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة حثًا موصولاً ؟!.. ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك ، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقًا وأكيدًا .

وتقول الدكتورة " فاجليري " أيضًا : أما تهمة القسوة فالرد عليها يسير .. إن محمدًا بوصفه رئيسًا لدولة والمدافع عن حياة شعبه وحريته قد عاقب باسم العدالة بعض الأفراد المتهمين بجرائم معينة عقابًا قاسيًا ، وإن مسلكه هذا ينبغي أن يُنظَرَ إليه على ضوء عصره وعلى ضوء المجتمع الجافي المتبربر الذي عاش فيه ، أما محمد بوصفه المبشّر بدين الله فكان لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه الشخصيين .. لقد امتزجت في ذات نفسه العدالة والرحمة ، وهما اثنتان من أنبل الصفات التي يستطيع العقل البشري تصوّرها .

كما قالت الدكتورة " فاجليري " : لقد أصر أعداء الإسلام على تصوير محمد شخصًا شهوانيًا ورجلاً مستهترًا ، محاولين أن يجدوا في زواجه المتعدد شخصية ضعيفة غير متناغمة مع رسالته .. إنهم يرفضون أن يأخذوا بعين الاعتبار هذه الحقيقة ، وهي أنه طوال سني الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون ، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب ، حيث كان الزواج كمؤسسة اجتماعية معقودًا ويكاد ، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة ،

وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود ، لم يتزوَج إلا من امرأة واحدة لا أكثر هي " خديجة " (رضي الله عنها) التي كانت سنها أعلى من سنه بكثير ، وأنه ظل طوال ٢٥ سنة زوجها المخلص والمحب .. ولم يتزوج مرة ثانية وأكثر من مرة إلاّ بعد أن تُوُفِّيَتْ " خديجة " ، وإلاّ بعد أن بلغ الخمسين من عمره .. ولقد كان لكل زيجة من زيجاته هذه سبب اجتماعي أو سياسي ، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى ، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ، ابتغاء شق طريق جديد لانتشار الإسلام .. وباستثناء " عائشة " ليس غيرها ، تزوج محمد من نسوة لم يكنّ لا عذارى ولا جميلات .. فهل كان ذلك شهوانية ؟؟!!..

- وقال العالم الاجتماعي والنفسي الفرنسي الشهير"جوستاف لوبون"(صاحب كتاب "حضارة العرب ") :

إن محمدًا رغم ما يُشَاعُ عنه من قِبَلِ خصومه ومخالفيه في أوروبا ، قد أظهر الحلم الوافر والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمّة جميعًا .

- وقال الكاتبان " أندريه وجورج مارسيه " (في كتابِهما " العالم الشرقي ") :

كان محمد شجاعًا يخوض المعركة بنفسه ، ويردّ الثبات إلى قلوب الذين يضعفون ، وكان رحيمًا بالضعفاء ، ويؤوي في بيته عددًا كبيرًا من المحتاجين ، وكان مع احتفاظه بِهيبة كاملة بسيط الحركات ، لا يتكلف شيئًا ، وبشوشًا سهل المعاملة رقيق الحماسة ، لا يثير غضبَه أهلُ الفضول ، وكان رجلاً بشيرًا .

- وقال " إدوارد مونتيه " (الفرنسي الأصل ، ومدير جامعة جنيف الذي ترجم معاني القرآن إلى اللغة الفرنسية) :

لا صحة لما تردد حول انتشار الإسلام في عهد الرسول وخلفائه الأربعة بحد السيف .. إن هذه الفكرة كذّبتها الوقائع .

- وقال المستشرق الشهير " إميل ديرما نجم " (في كتابه " حياة محمد ") :

إن محمدًا رسول الإسلام قد أبدى في أغلب حياته ، بل طوال حياته اعتدالاً لافتًا للنظر .. فقد برهن انتصاره النهائي على عظمة نفسية قلّ أن يوجد لها مثيل في التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء ، وحذّرهم من أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجار ، أو يقطعوا الأشجار المثمرة ، وأمرهم ألاّ يجرّدوا السيوف إلاّ في حالة الضرورة القاهرة ، بل قد بلغنا أنه كان يؤنب بعض قوّاده ويُصْلِحُ أخطاءهم إصلاحًا ماديًا .

هذه بعض أقوال وشهادات وآراء كبار المفكّرين والكتّاب والعلماء والمؤرخين والفلاسفة في العالم عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، دون تعصّب أو تحيّز .

ولعلك أيها المسلم بعد أن قرأتَ ما ذكره هؤلاء المفكّرون الكبار ، تشعر بالزهو والفخر بأنك من أمّة هذا العملاق الذي لم ولن يأتي الزمان بمثله ، محمد بن عبد الله ، صاحب أعظم مدرسة في التاريخ .. تلك المدرسة التي تخرّج منها الكثيرون ، والتي سنتحدث عن بعضهم في الصفحات التالية باعتبارهم من " المتفوّقين " في مدرسة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

أيها المسلمون .. إننا أيضًا نستطيع أن نتفوّق في مدرسة " محمد بن عبد الله " صلى الله عليه وسلم ، إذا ما عرفنا ما سار عليه المتفوّقون من تلاميذه العظام ، وما اتّبعوه من هديه ، وإذا أخذنا منه مثل ما أخذوا ، واعتبرناه القدوة والمثل الأعلى .. وسبحان الله تعالى إذ يقول : [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا] " صدق الله العظيم " ٢١ الأحزاب "..

أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ

كان أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه معروفًا بتواضعه وشدّة حيائه ، ولكنه وقت الجهاد تجده كالليث عاديًا .. واسمه " عامر بن عبد الله بن الجرّاح ، والمُكَنّى بأبي عبيدة بن الجرّاح .

هذا الصحابيّ الجليل الذي قال عنه سيّد المرسَلين : (لكل أُمَّةٍ أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة) ، كان من يراه يرتاح لرؤيته ويطمئن إليه .. وكان من الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام ، إذ هداه الله تعالى فأسلم في اليوم التالي لإسلام أبي بكر رضي الله عنه ، وعلى يديه ، حيث أخذه الصدّيق ومعهما عبد الرحمن بن عوف ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأعلنوا إسلامهم بين يديه ، ولهذا فهؤلاء يعتبرون القواعد الأولى التي بُنِيَ عليها صَرْحُ الإسلام

كان أبو عبيدة مع المسلمين في مكة ، وشاركهم المعاناة القاسية والآلام والأحزان ، فكان صابرًا ثابتًا في كل المواقف .. أما ما فاق الخيال فهو ما حدث لأبي عبيدة في محنته يوم بدر ، حين راح يصول ويجول مخترقًا الصفوف صولة الأسد الذي يزأر زئيرًا ملأ المشركين خوفًا ورعبًا ، فكان فرسان قريش يحذرونه ويبتعدون عنه كلما واجههم .. ولم يكن أبو عبيدة يتنحّى عن مواجهة أيّ فارس في هذه المعركة ، إلاّ أن المحنة فَرَضَتْ عليه أن يواجه فارسًا كان له في نفسه شأن من العاطفة ، فكان أبو عبيدة يتجنب طريقه حتى لا يضطر إلى مواجهته .. ولكن الفارس كان يحرص على مواجهته ، والوقوف حائلاً بينه وبين أعداء الله من المشركين .. فلما ضاق صدر أبي عبيدة ولم

يستطع الصبر على ذلك ، ضرب رأس ذلك الفارس بالسيف ففلق رأسه فلقتين ، فوقع الفارس صريعًا أمامه .

أتدري أيها القارئ مَنْ كان ذلك الفارس ؟!..

ربما لا يسعفك خيالك لمعرفة شخصية الرجل الذي قتله أبو عبيدة .. لقد كان القتيل هو عبد الله بن الجرّاح ، والد أبي عبيدة !!..

لقد كان إيمان أبي عبيدة وحبه لله ورسوله ودينه أقوى من عاطفته نحو أبيه .. ولقد كانت محنة قاسية اجتازها أبو عبيدة ، ولهذا أنزل الله تعالى في شأنه قوله تعالى:[لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] " ٢٢ المجادلة " .

وحدث أن قَدِمَ وفد من النصارى على الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ليحكم بيننا في أشياء من أموالنا اختلفنا فيها ، فإنكم عندنا معشر المسلمين مرضيّون .. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ائتوني العشيّة أبعث معكم القويّ الأمين .. قال عمر بن الخطاب : فَرُحْتُ إلى صلاة الظهر مبكّرًا ، وإني ما أحببتُ الإمارة حبي إيّاها يومئذ رجاء أن أكون صاحب هذا النعت .. فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ، جعل ينظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلتُ أتطاول له ليراني ، فلم يزل يقلّب بصره فينا حتى رأى أبا عبيدة بن الجرّاح ، فدعاه فقال : اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، فقلتُ : ذهب بها أبو عبيدة !!..

كما كان أبو عبيدة يتصف بما وصفه به النبيّ من القوّة والأمانة ، وقد تجلّت مظاهر قوّته في مواطن كثيرة ، فقد أمّره النبيّ على جماعة من أصحابه ليتلقّوا قافلة لقريش ، وزوّدهم النبيّ جرابًا من تمر ، لم يجد لهم غيره ، فكان أبو عبيدة يعطي كل واحد منهم تمرة واحدة كل يوم ، فيمصّها كما يمصّ الرضيع ثدي أمّه ، ثم يشرب عليها الماء ، فكانت تكفيه يومه حتى الليل .

وفي غزوة أُحُد ، حين أصابت الهزيمة المسلمين ، صاح أحد المشركين مناديًا : دلّوني على محمد .. فكان أبو عبيدة أحد النفر العشرة الذين وقفوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم ليدافعوا عنه وليحموه بصدورهم وليصدّوا رماح وسهام المشركين .. وكان إذا اضطرته ظروف المعركة أن يبتعد قليلاً عن الرسول ، كان يقاتل وعيناه متجهتان دومًا إلى حيث يقف الرسول ويقاتل ، ترقبانه في حرص وقلق .. وكلما تراءى لأبي عبيدة خطر يقترب من النبيّ، ترك موقفه البعيد ، وقطع الأرض وثبًا حيث يقاتل أعداء الله ويردُهم على أعقابِهم قبل أن ينالوا من رسول الله .. وفي إحدى الجولات التي بلغ القتال فيها ضراوته ، أحاط بأبي عبيدة طائفة من المقاتلين ، وكانت عيناه كالعادة تُحَدِّقَانِ في موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاد أبو عبيدة يفقد صوابه عندما رأى سهمًا انطلق من يدِ مشركة فأصاب النبيّ ، فاستعمل سيفه في الذين يحيطون به وكأنه ألف سيف ، حتى أبعدهم عنه ، وراح يقفز في اتجاه الرسول ، فرأى دمه الزكيّ يسيل على وجهه ، ورأى الرسول الكريم يمسح الدّم بيمينه ويقول : (كيف يفلح قوم خَضَبُوا وجه نبيّهم ، وهو يدعوهم إلى ربّهم) ؟؟!!..

وفي نهاية المعركة تبيّن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد كُسِرَتْ رباعيته وشُجَّ جبينه ، وغارتْ في وجنته حلقتان من حَلَقِ المِغْفَرِ الذي يضعه فوق رأسه ، فجاء أبو بكر يريد انتزاعهما من وجنته فقال له : أبو عبيدة : أقسم عليك أن تترك ذلك لي ،

فتركه أبو بكر ، ولكن أبا عبيدة كان يخشى أن يؤلم رسول الله إن اقتلعهما بيده ، فعضّ على أولى الحلقتين بثنيته " إحدى أسنان مقدّمة الفم " عضًّا قويًا فأخرجها ووقعت بذلك ثنيته ، ثم عضّ على الحلقة الأخرى بثنيته الثانية ، فانتزعها ووقعت ثنيته الثانية .. ولهذا قال أبو بكر : " فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتْمًا " .

ويوم السّقيفة " يوم بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة " قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة :
ابسط يدك أبايعك ، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لكل أمّة أمين ، وأنت أمين هذه الأمّة) ، فقال أبو عبيدة : ما كنتُ لأتقدّم بين يدي رجل أَمَرَهُ رسول الله أن يؤمنا في الصلاة فأمّنا حتى مات .

ثم تمّت البيعة بعد ذلك لأبي بكر الصدّيق ، وكان أبو عبيدة من خيرة المقرّبين إليه والناصحين له في الحق ... ولما عهد أبو بكر بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب ، دان له أبو عبيدة بالطاعة والولاء .. وعندما كان خالد بن الوليد يقود جيوش الإسلام في إحدى المعارك الفاصلة ، حدث أن عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بتولية أمر قيادة الجيوش إلى أبي عبيدة بدلاً من خالد بن الوليد ، ولكن أبا عبيدة لم يكد يستقبل مبعوث أمير المؤمنين عمر بهذا الأمر الجديد ،حتى استكتمه الخبر ، وكتمه هو في نفسه حتى أتم القائد "خالد " فتحه العظيم .. وحينئذ تقدّم إليه في أدب جليل بكتاب أمير المؤمنين .. ولما سأله خالد : (يَرْحَمُكَ اللهُ أبا عبيدة ، ما منعك أن تخبرني حين جاءك الكتاب ؟!) فقال أبو عبيدة : (إني كرهتُ أن أكسِرَ عليك حربك ، وما سلطان الدنيا نريد ، ولا للدنيا نعمل ، كلنا في الله إخوة) !!..

وحين أصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام وقائد الجيوش ، ما كان يحسبه الذي يراه إلاّ واحدًا من المقاتلين ، وفردًا عاديًا من المسلمين .. وحين سمع أحاديث أهل الشام عنه ، وإعجابَهم به ، جمعهم وقام فيهم خطيبًا وقال لهم : (يا أيها الناس ، إني مُسْلِمٌ من قريش .. وما منكم من أحد ، أحمرَ ولا أسْوَدَ ، يفضُلُني بتقوى إلاّ وَدِدْتُ أني في إهابه) !!.. لم يقل أكثر من أنه مسلم من قريش .. ولم يتحدّث عن نفسه كأمير أو حاكم لبلاد الشامَ .. ولم يكن لذلك في تقديره أيّ حساب !!..

وحدث أن زار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الشام ، فسأل مستقبليه : أين أخي ؟!.. فسألوه : مَنْ ؟ .. فقال : أبو عبيدة ... ولما جاء أبو عبيدة ، عانقه أمير المؤمنين عمر .. ثم صحبه إلى داره ، فلم يجد فيها من الأثاث شيئًا .. ولم يجد إلاّ سيفه وترْسَهُ ورَحْلَهُ . . ويسأله عمر : ألا اتخذتَ لنفسك مثلما يصنع الناس ؟!.. فيقول أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، هذا يُبَلِّغني المَقيل .

وعاش أبو عبيدة في عهد أمير المؤمنين عمر ، جنديًا مطيعًا ، ولم يَعْصِ له أمرًا إلاّ مرّة واحدة ، ولم يكن هذا العصيان هوىً في نفسه ، ولكنه كان تعبيرًا عن التزام القائد وإحساسه بالمسئولية تجاه جنوده .

وقصة هذا العصيان أن أبا عبيدة كان يقود جيوش المسلمين في الشام حتى فتح الله على يديه الشام كلها حتى بلغ الفرات شرقًا وآسيا الصغرى شمالاً .. وفي هذه الأثناء انتشر طاعون كان يحصد الناس حصدًا .. فلما سمع أمير المؤمنين بخبر الطاعون وخطره أرسل رسولاً إلى أبي عبيدة يقول فيها : إني بَدَتْ لي إليك حاجة لا غِنىً لي عنك فيها ، فإن أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك ألاّ تصبح حتى تركب إليّ ، وإن أتاك نهارًا فإني أعزم عليك ألاّ تُمْسي حتى تركب إليّ .

ولما قرأ أبو عبيدة رسالة الفاروق عمر قال : قد علمتُ حاجة أمير المؤمنين إليّ ، فهو يريد أن يستبقي من ليس بباق ، ثم كتب إلى عمر يقول : يا أمير المؤمنين ، إني قد عرفتُ حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين ، ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم .. ولا أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره .. فإذا أتاك كتابي هذا فحلّلني من عزمك ، وائذن لي بالبقاء .

ولما قرأ عمر ذلك بكى حتى أدمعت عيناه واشتدّ بكاؤه ، فسأله الجالسون معه : هل مات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، ولكن الموت منه قريب .

وحدث أن أصيب أبو عبيدة بالطاعون .. ولما اقترب من الوفاة أوصى جنوده فقال : إني موصيكم بوصيّة إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدّقوا ، وحجّوا واعتمروا ، وتواصَوْا ، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشّوهم ولا تلهاكم الدّنيا ، فإن المرْءَ لو عُمِّرَ ألف حَوْلٍ ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترَوْنَ .. والسلام عليكم ورحمة الله .. ثم نظر إلى معاذ بن جبل وقال : يا معاذ ، صَلِّ بالناس .. ثم فاضت روحه الطاهرة ، فقام معاذ وقال : أيها الناس ، إنكم قد فُجِعْتُمْ برجل _ والله _ ما أعلم أني رأيتُ رجلاً أبرَّ صدرًا ولا أبعد غائلة " حقدًا " ولا أشدّ حبًا للعاقبة ولا أنصح للعامة منه ، فترحّموا عليه يرحمكم الله .

هذا هو أبو عبيدة الذي قال عنه عمر بن الخطاب : لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفتُه فإن سألني ربّي عنه ، قلتُ : استخلفتُ أمين الله وأمين رسوله .

ولما علم الفاروق عمر بوفاة أبي عبيدة بكى على فقده وسالت دموعه ، وترحّم عليه وقال عنه : (لو كنتُ متمنّيًا ، ما تمنّيتُ إلاّ بيتًا مملوءًا برجال من أمثال أبي عبيدة) !!..

رحمك الله يا أبا عبيدة ورضي الله عنك .. فقد تخرّجتَ بأعظم مراتب الشرف ، وأعلى درجات الامتياز ، في مدرسة محمد بن عبد الله .. وكنتَ في مقدّمة المتفوّقين !!..

عُـمَـيْـرُ بْـنُ سَـعْـد

إنه " عمير " وأبوه " سعد " القارئ رضي الله عنه .. شهد أبوه بدرًا مع الرسول ، ومشاهد كثيرة بعدها ، وظل سعد أمينًا على العهد حتى لَقِيَ الله شهيدًا في موقعة القادسية .. ولقد اصطحب سعدُ ابنَه عميرًا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث بايع النبيّ وأسلم ..

ومنذ أسلم عمير وهو متعبد في محراب الله ، لا يحب الأضواء ، ويستريح في هدوء الظلال ، ولم يكن ينافس غيره للتواجد في الصفوف الأولى إلاّ إذا كانت للصلاة ، فقد كان يحرص على الصلاة في الصف الأول حتى ينال ثواب السابقين .. وكذلك كان تنافسه في الجهاد متمنّيًا أن يكون من الشهداء .

لقد كان عمير بن سعد يعاني منذ طفولته الحرمان من الأبوّة ، حيث نشأ يتيمًا ، كما عانى آثار الفقر والحاجة ، فقد تُوُفِّيَ أبوه ولم يترك له شيئًا يعينه على المعيشة .. ولم تحتمل أمّه حياة الفقر ، فتزوجت من أحد أثرياء قبيلة الأوس ، وهي قبيلة عظيمة من قبائل المدينة التي عاهدت الرسول صلى الله عليه وسلم على حمايته .. وكان هذا الثريّ يُدْعَى " الْجُلاَّسُ بنُ سُوَيْد" ، وكان رجلاً كريمًا ، فقد احتضن عميرًا وأحسن رعايته ، وعطف عليه ، وكان يعامله كأنه ابنه ، وبذلك وجد عمير في الجلاس ما يعوّض حرمانه من الأبوّة ، وما ينقذه من الفقر .

وعاش عمير مع زوج أمّه حياة هانئة ، وكان حبّه للجلاّس يزداد مع الأيام ، كما كان الجلاّس يحبه ويعجب به ، لإخلاصه وأمانته وذكائه . . ومن حسن حظ عمير أن الله شرح صدره للإسلام قبل أن يتجاوز عمره عشر سنوات ، فنشأ من

بدايته مؤمنًا طاهرًا نقيًا ، وملأ الإيمان قلبه ، حتى أنه كان يحرص رغم صغر سنه على الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يتخلف عنها ، مما جعل أمّه تشعر بالرضا والسعادة لتديّنه منذ الصغر .

وبينما كان عمير يعيش هذه الحياة الهادئة الهانئة ، حدث ما يعكّر صفو هذه الحياة ، حيث مرّ بتجربة قاسية على غلام مثله .. فحينما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم العزم على غزو الروم في مدينة " تبوك " ، وهي مدينة على حدود الشام الجنوبية ، وأمر المسلمين بالاستعداد لتلك المعركة ، وأن يعدّوا أنفسهم ، وقد عرّف الرسول المسلمين بعزمه على غزو الروم على غير عادته ، فلم يكن يصرّح من قبل بجهة الغزو إلاّ في الوقت المناسب ، إلاّ أنه صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين بأنهم مقبلون على غزو الروم في تبوك ، حتى يكونوا على علم بأهمية هذه الغزوة وخطورتها لعدّة أسباب ، فقد كانت تبوك تبعد كثيرًا عن المدينة ،كما كان العدوّ هذه المرّة قويًا .

وقد استجاب المسلمون لنداء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، رغم أن الجوّ كان حارًا ، إذ كانوا في فصل الصيف حيث يركن الناس إلى الراحة والتراخي ... وبينما كان المسلمون يستعدون للمعركة ، كان بعض المنافقين يثيرون الشكوك حول نتيجة هذه المعركة ، ويتغامزون ، ويحاولون تثبيط الهمم والعزائم .

ورأى عمير بعينه وسمع بأذنه إقبال المسلمين على المساهمة في تجهيز جيش المسلمين ، كما رأى نساء المدينة من المهاجرين والأنصار على السواء يتبرعن بحليّهن ويلقينه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليستعين بثمنه في إعداد الجيش .. كما رأى عمير أيضًا عثمان بن عفان يتبرع بألف دينار ذهبًا ، وعبد الرحمن بن عوف يقدّم مائتي أوقية من الذهب ويعطيها للرسول الكريم .

ومن الصور العظيمة للبذل والتضحية في هذه الأثناء أن رجلاً لم يكن لديه من المال ما يعينه على شراء سيف ، فراح يعرض فراشه الذي ينام عليه للبيع ليشتري به سيفًا يقاتل به في سبيل الله .

وكانت هذه الصور الرائعة تثير إعجاب عمير ، وكان في نفس الوقت يندهش من عدم إقبال الجلاّس بن سويد على البذل والعطاء كغيره من المسلمين ، رغم أنه من الأغنياء الموسرين !!..

وبدأت التجربة القاسية التي مرّ بها عمير عندما أراد أن يستثير الهمّة في نفس الجلاّس ويوقظ حماسه ، فراح يحكي له ما رآه من تضحيات المسلمين وبذلهم لإعداد الجيش ، كما قص عليه أمر بعض المؤمنين الذين جاءوا يسألون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يضمهم إلى الجيش ، ولكن النبيّ ردّهم لعدم وجود الكفاية من الركائب التي تحملهم ، وكانوا يَتَوَلَّوْنَ وأعينهم تفيض من الدمع لعدم تحقيق أمنياتِهم في الجهاد .

ولكن الجلاّس فاجأ عميرًا بما أذهله وكاد أن يطير بعقله .. فقد قال الجلاّس : (إن كان محمد صادقًا فيما يدّعيه من النبوّة فنحن شرٌّ من الحمير) .. كانت هذه العبارة من الجلاّس بمثابة السهم القاتل الذي أصاب قلب عمير المؤمن والمحب لله ورسوله ، إذ لم يكن يتوقّع من الجلاّس أن ينطق بمثل ما نطق به في حق النبيّ الكريم .. وهنا تعرّض عمير لصراع رهيب يكاد يمزّق قلبه، هل يسكت على ما سمعه من الجلاّس ويتستّر عليه ؟!.. وكان يرى في السكوت خيانة لله ورسوله ولدين الإسلام .. وإذا أذاع ما سمعه من الجلاّس ، كان ذلك إساءة للجلاّس الذي أحسن إليه وآواه بعد يُتْمِه ، وأعانه بعد فقره .

واشتدّ الصراع في قلب وعقل عمير .. وكان عليه أن يتخذ قرارًا .. إما أن يسكت ويتستّر على الجلاّس ، أو يخبر الرسول الكريم بما نطق به الجلاّس .. وأخيرًا انتصر إيمانه على عاطفته وحبّه للجلاّس ، ثم نظر إلى الجلاّس وقال له : (والله يا جلاّس ما كان على ظهر الأرض أحد بعد محمد بن عبد الله أَحَبَّ إليّ منك ، فأنت أحبُّ الناس عندي ، وأعظمهم نعمة عليّ ، ولقد قلتَ مقالةً إن ذكرتُها فضحتُك ، وإن أخفيتُها خُنْتُ أمانتي وأهلكتُ نفسي وديني ، وقد عزمتُ أن أذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما قلتَ ، فكن على بيّنة من أمرك .

ولم ينتظر الغلام ، بل ذهب فعلاً إلى المسجد وأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بما قاله الجلاّس بن سويد .. فاستبقاه الرسول الكريم معه وأرسل أحد صحابته ليأتي بالجلاّس .. وجاء الجلاّس وحيّا النبيّ الكريم ثم جلس ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما مقالة سمعها منك عمير بن سعد ؟!..وذكر له ما قاله عمير ... فقال الجلاّس : كذَبَ عليّ يا رسولَ الله وافترى ، فما قلتُ شيئًا من ذلك .

وتعجّب الصحابة الجالسون ، ونظروا تارة إلى الجلاّس وإلى عمير بن سعد تارة أخرى ، لعلّ وجهيهما يفصحان عما في صدريهما من الحقيقة ، وبدأ الصحابة يتهامسون ، فمنهم من قال : فتىً عاق يسيء إلى من أحسن إليه .. ومنهم من قال : بل إنه فتىً نشأ في طاعة الله ، وإن قسمات وجهه لتنطق بصدقه .

وتأثر عمير بتكذيب الجلاّس له ، واحتقن وجهه احمرارًا ، وتساقطت دموعه بغزارة حتى ملأت وجهه ، ووصلت إلى صدره ، .ولم يجد مخرجًا من هذا الموقف ، وخاصةً عندما نظر إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكأنه يتساءل : من الصادق فيهما

؟!..وهنا ازداد بكاء عمير وعزّت عليه نفسه ، فتضرّع إلى الله قائلاً : (اللهم أنزل على نبيّك بيان ما تكلمتُ به .. اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمتُ به) ..

وما زاد من صعوبة موقف عمير أن الجلاّس اقترب من الرسول الكريم وقال له : إن ما ذكره لك يا رسول الله هو الحق ، وإن شئتَ تحالفنا بين يديك " أي أقسم كلانا على صدق كلامه " ، ثم قال : وإني أحلف بالله أني ما قلتُ شيئًا مما نقله لك عمير ..

وسكت النبيّ برهة بينما راحت عيون الجالسين تنظر إلى عمير نظرة ارتياب ، خاصةً بعد أن حلف الجلاّس .. وبعد لحظات نزلت السكينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدرك الصحابة أن الوحي قد نزل عليه .. فالتزموا الصمت ، والتفتوا جميعًا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لعلهم يسمعون منه ما يبيّن الحقيقة في قول كل من عمير والجلاّس !!..

أما عمير فقد بدا متلهّفًا متشوّقًا ، بينما بدأ الخوف والقلق على الجلاّس خشية أن ينكشف كذبه ... وما أن زال أثر الوحي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، حتى تلا قول الله تعالى : [يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِم وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُم، وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا] " ٧٤ التوبة " .

عند سماع قول الله تعالى ارتعد الجلاّس وكاد ينعقد لسانه خوفًا وجزعًا ثم نظر في خجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : بل أتوب يا رسول الله .. بل أتوب .. ثم قال : صدق عمير يا رسول الله ، وكنتُ من الكاذبين .. اسأل الله أن يقبل توبتي ، جُعِلْتُ فداك يا رسول الله ..

أشرق وجه عمير ، وإذا بدموع الفرح تسيل على خدّيه ، وتوجّه الرسول الكريم إلى عمير وأمسك بأذنه برفق وقال له : (وَفَتْ أُذُنُكَ ياغلام ما سَمِعَتْ ، وصَدَّقَكَ رَبُّكَ) .

وكان هذا الحدث سببًا في حُسْنِ إسلام الجلاّس وتوبته وتعمّق إيمانه وصلاح حاله ، وازداد حبّه لعمير وعطفه عليه وبرّه به ، وكلما ذُكِرَ أمامه اسم عمير كان يقول : جزاه الله عني خيرًا ، فقد أنقذني من الكفر ، وأعتق رقبتي من النار .

وكان إيمان عمير يزداد مع تقدّم عمره .. وتزداد مكانته في قلوب أصحابه لشدّة وَرَعِهِ وتقواه وتواضعه .. وفي عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حدث أن كثرت شكاوى أهل " حمص " ، وهي مدينة في سورية تقع بين دمشق وحلب ، وكان أهل حمص شديدي التذمّر من الولاة ، وكلما جاءهم والٍ بعثوا بشكاواهم إلى أمير المؤمنين يحصون على الوالي عيوبه ، ويطلبون إبداله بمن هو أفضل منه .

وكان أمير المؤمنين عمر شديد الدّقة والتأني عند اختيار الولاة ، لأنه يعتبر نفسه مسئولاً عن كل أعمالهم ، فكان يختارهم من أكثر الناس زهدًا وَوَرَعًا وأمانة وصدقًا ، ومن الذين يهربون من الولاية ولا يسعون إليها ، ولا يقبلونها إلاّ مُكْرَهِين .. ولما شكا إليه أهل حمص ، قرّر أن يولّي عليهم واليًا يرضون به ولا يجدون فيه ما يعيبه ، فأخذ يفكّر في جميع من حوله ، فلم يجد أفضل من عمير بن سعد .

كان عمير حينئذ يغزو في أرض الجزيرة من بلاد الشام ، وهو على رأس الجيش ، وقد حرّر كثيرًا من المدن ، وأخضع القبائل ، وأقام المساجد في كل أرض غزاها ... وأرسل إليه أمير المؤمنين عمر يدعوه ويعهد إليه بالولاية على حمص ، ورغم أن عميرًا

كان يفضّل الجهاد في سبيل الله على أي عمل آخر ، إلاّ أنه لم يستطع أن يعصي أمرًا لأمير المؤمنين ، فقبل الولاية مُكْرَهًا .

ولما وصل عمير إلى حمص ، دعا أهلها إلى صلاة جامعة ، وبعد الصلاة قام عمير فخطب في الناس خطبة كانت بمثابة الدستور أو النظام الذي سيسري في ولايته على حمص في حزم وحسم ، فقال في خطبته : (أيها الناس ، إن الإسلام حصن منيع ، وباب وثيق " أي متين " ، وحصن الإسلام العدل ، وبابه الحق ، فإذا دُكَّ الحصنُ وحُطِّمَ البابُ استُبِيحَ حِمَى هذا الدّين .. وإن الإسلام ما يزال منيعًا ما اشتدّ السّلطانُ ، وليست شدّة السلطان ضربًا بالسَّوْط ، ولا قتْلاً بالسَّيف ، ولكن قضاءً بالعدل وأخذًا بالحق) ، ثم انصرف بعد ذلك إلى عمله .

وفي هذه المبادئ التي أعلنها عمير لنظام الحكم ، استمر عمير عامًا كاملاً في حمص ، وخلال هذه المدّة لم يكتب عمير رسالة إلى أمير المؤمنين ، ولم يرسل إلى بيت المال من الخراج شيئًا .

ولما كان الفاروق عمر رضي الله عنه شديد الإحساس بالمسئولية ، فقد أخذت تساوره الشكوك ، فقال لكاتبه : اكتب إلى عمير بن سعد وقل له : إذا جاءك كتاب أمير المؤمنين فَدَعْ حمص وأَقْبِلْ عليه ، واحمل معك ما جَبَيْتَ من فَيْءِ المسلمين " الخراج " .

وعندما وصل كتاب عمر إلى عمير بن سعد ، حمل جِرَابَ زاده وقصعته التي يأكل فيها وَوِعَاءَ وضوئه ، وبيده حربته ، وانطلق إلى المدينة سيرًا على قدميه .. ولبعد المسافة بين حمص والمدينة ، فقد ضعف جسمه ، واصفرّ لون وجهه ، واسترسل شعره

، وبدت عليه آثار مشقة السفر الطويل .. ولما دخل عمير على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أصابت الفاروق الدّهشة لحالته وقال له : ما بك يا عمير ؟؟!!..

فقال عمير : ما بي شيء يا أمير المؤمنين ، فأنا صحيح مُعافًى بحمد الله ، أحمل الدّنيا كلها وأجرّها بقرنيها .

فقال عمر : وما معك من الدنيا ؟! (وقد ظن عمر أنه جاء ببعض المال لبيت المسلمين) .

قال عمير : معي جرابي وقد وضعتُ فيه زادي ، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل عليها رأسي وثيابي ، ومعي قِربَةٌ لوضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكّأ عليها ، ثم إن الدنيا كلها يا أمير المؤمنين تَبَعٌ لمتاعي هذا ، وفضلةٌ لا حاجة لي ولا لأحد غيري بها (أي أنه ليس له أو لأحد من أهله حاجة في أكثر مما معه) .

قال عمر : وهل جئتَ من حمص ماشيًا ؟!..

قال عمير : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : أما أُعْطِيتَ من الإمارة دابّةً تركبها ؟؟!!..

قال عمير : هم لم يعطوني ، وأنا لم أطلب منهم .

فقال عمر : وأين ما أتيتَ به لبيت المال ؟

قال عمير : لم آتِ بشيء .

فقال عمر : ولِمَ ؟!..

قال عمير : لمّا ولّيتني على حمص ، جمعتُ أصلح الناس من أهلها ، وولّيتهم جمع خراجهم ، وكلما جمعوا شيئًا ، استشرتهم في أمره ، فوضعتُه في مواضعه ، وأعطيناه للمستحقين منهم .

فالتفت عمر إلى كاتبه وقال له : جدّد العهد لعمير على ولاية حمص .. ولكن عميرًا لم يقبل ، وقال : هيهات .. فإن ذلك شيء لا أريده ، ولن أعمل لك ولا لأحد بعدك يا أمير المؤمنين .

وطلب عمير أن يسمح له عمر بالذهاب إلى قرية في أطراف المدينة يعيش فيها أهله ، فسمح له .

وبعد بضعة أيام أراد عمر بن الخطاب أن يستوثق من أمر عمير ، فكلّف رجلاً من أهل الثقة يُسَمَّى " الحارث " أن يذهب إلى عمير بن سعد ، وينزل به وكأنه ضيف ، ليرى إن كان عليه آثار نعمة عاد ليخبر أمير المؤمنين ، وأعطاه عمر مائة دينار وقال له : إن وجدتَ حاله شديدة فاعطه هذه الدنانير .

وذهب الحارث إلى القرية التي يقيم فيها عمير بن سعد ، وسأل بعض أهل القرية عن بيت عمير ، فدلّوه عليه ، فلما وجد عميرًا ألقى عليه تحية الإسلام ، وردّ عليه عمير التحية ثم سأله :

من أين قَدِمْتَ ؟

فقال الحارث : من المدينة .

قال عمير : كيف تركتَ المدينة ؟

فقال الحارث : بخير .

فسأل عمير : كيف أمير المؤمنين ؟

قال الحارث : صحيح صالح .

فقال عمير : أليس يقيم الحدود ؟

فأجاب الحارث : بلى ، ولقد ضرب ابنًا له لفاحشة أتاها ، وظل يضربه حتى مات من الضرب .

فقال عمير : اللهم أَعِنْ عمر ، فإني لا أعلمه إلاّ شديد الحب لك .

استضاف عمير بن سعد ، الحارث لأنه غريب عن القرية ثلاث ليال ، وفي كل ليلة كان يعطيه قُرْصًا من الشعير .. وفي اليوم الثالث ، رأى أحد الأهالي الحارث فقال له : يا هذا ، لقد أرهقتَ عميرًا وأهله ، فليس لهم إلاّ هذا القرص الذي يؤثرونك به على أنفسهم ، ولقد بلغ بِهم الجوع مبلغًا أضرَّ بِهم ، فليتك تتحوّل إلى ضيافتنا ، ومرحبًا بك !!

عندما علم الحارث ذلك ، أخرج الدنانير وأعطاها لعمير ، فقال عمير : ما هذه ؟!..
فقال الحارث : إنَّها من أمير المؤمنين عمر ، بعث بِها إليك .
فقال عمير : ردَّها إليه ، واقرأ عليه السلام ، وقل له : لا حاجة لعمير بِها .

وكانت زوجة عمير تسمع الحديث الذي يدور بينهما ، فنادت على عمير وقالت له : خذها ياعمير ، فإن احتجتَ إليها أنفقتَها ، وإلاّ وضعتَها في مواضعها ، فالمحتاجون هنا كثيرون .

وما أن سمع الحارث هذا القول حتى ألقى الدنانير بين يدي عمير ، وخرج عائدًا إلى المدينة . أما عمير ، فلم تمضِ الليلة حتى كان قد وزّع الدنانير كلها بين ذوي الحاجات وأسر الشهداء .

ولما وصل الحارث إلى المدينة سأله أمير المؤمنين عمر : ماذا رأيتَ يا حارث من أمر عمير؟؟
فقال الحارث : رأيتُ حالاً شديدة يا أمير المؤمنين .
فقال عمر : هل دفعتَ إليه الدنانير ؟

فقال الحارث : نعم يا أمير المؤمنين .

فسأل عمر : وما صنع بها ؟

فقال الحارث : لا أدري ، وما أظنه يُبْقِي منها لنفسه درهمًا واحدًا .

تأثّر الفاروق عمر لما سمع ، وكتب إلى عمير يقول له : إذا جاءك كتابي هذا ، فلا تضعه من يدك حتى تُقْبِلَ عليّ .. وبروح الجنديّ الذي يحترم أمر قائده ، ذهب عمير على الفور إلى المدينة حيث التقى بأمير المؤمنين ، فحيّاه عمر ، ورحّب به ، وقرّب مجلسه منه ، ثم قال له :

ماذا صنعتَ بالدنانير يا عمير ؟

فقال عمير : وما عليك منها يا عمر بعد أن خرجتَ لي عنها ؟!

فقال عمر : عزمتُ عليك أن تُخبِرَني بما صنعتَ بها .

فقال عمير : ادّخرتُها لنفسي لأنتفع بِها في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

فتأثّر عمر ودمعت عيناه وقال : أشهد أنك من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بِهم خصاصة " أي حاجة " .. وأمر عمر له بثوبين ، وستين صاعًا من طعام ، وهي تُقَدَّرُ بِحِمْلِ بعير .

فقال عمير : أما الطعام فلا حاجة لنا به يا أمير المؤمنين ، فقد تركتُ عند أهلي صاعين من شعير ، وإلى أن نأكلهما يكون الله عز وجلّ قد جاءنا بالرزق ، وأما الثوبان فآخذهما لأن أم فلان " يعني زوجته " قد بَلَى ثوبُها وكادت تَعْرَى .

وبعد هذا اللقاء بين عمير وأمير المؤمنين عاد عمير إلى أهله ، ولم يمضِ زمن طويل حتى أراد الله تعالى لعمير أن يلحق بنبيّه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، فمضى عمير إلى الآخرة لا يحمل معه إلاّ النور والهُدَى والتقوى والورع .... وحزن لفقده

عمر بن الخطاب حزنًا شديدًا وقال : (وددتُ أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بِهم في أعمال المسلمين) !!

رضي الله عنك يا عمير بن سعد ، فقد كنتَ نموذجًا مثاليًا من المتفوّقين في مدرسة محمد بن عبد الله !!..

عَبْدُ اللّه بْنُ مَسْعُود
(الصّادِحُ بالقرآن)

اسمه عبد الله ، واسم أبيه " مسعود " ، وكان الناس ينادونه " ابن أم عبد " ، عندما كان غلاماً لم يبلغ الْحُلُمَ بعد ، كان يرعى الغنم لأحد سادات قريش وهو " عُقْبَةُ بْنُ أبي مُعَيْط " ، وكان يسرح بها في شعاب مكة ، فقد كان يحب أن يكون بعيداً عن الناس ... وعندما بدأت تنتشر أخبار النبيّ الذي ظهر في مكة لم يكن يهتم عبد الله بن مسعود بهذه الأخبار لحداثة سنه في ذلك الوقت ، وأيضاً لأنه كان دائم الابتعاد عن مجتمع مكة ، وكان اهتمامه بعمله في رعي الغنم يشغل معظم وقته ، إذ كان يخرج بالغنم من الصباح المبكّر ويظل بها في شعاب مكة حتى يقبل الليل .

وحدث ذات يوم أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، وكانا يشعران بالظمأ ، ومرّا على عبد الله وهو جالس أمام غنمه ، وكان قد اشتد الظمأ بالرسول وصاحبه ، فلما رأيا الغلام وقفا عنده وألقيا عليه السلام وقالا له :
يا غلام ، احلب لنا من هذه الغنم ما نطفئ به ظمأنا .. فقال الغلام : لا أستطيع أن أفعل ، فالغنم ليست غنمي ، وأنا مؤتمن عليها .. فلم يشعر الضيفان الكريمان بالاستياء ، بل شعرا بالارتياح والرضى عن الغلام لأمانته .. فقال له الرسول : دلّني على شاة لم يَنْزُ عليها فحل ، فأشار عبد الله إلى شاة قريبة منه ، وكانت صغيرة ، وتقدّم النبيّ من الشاة وأمسك بها ، وراح يمسح على ضرعها بيده ، وهو يذكر اسم الله ، فشعر الغلام بالدهشة ، إنه لم يَرَ أحداً من قبل يعمل عملاً وهو يذكر اسم الله ، ونظر الغلام في دهشة إلى الرسول ، وهو يقول في نفسه : ماذا يفعل هذا الرجل ؟!.. وهل يمكن للشاة الصغيرة التي لم يَنْزُهَا فحل أن يُدِرَّ ضرعها لبناً ؟!.. وكانت دهشته

أكبر حينما رأى ضرع الشاة الصغيرة ينتفخ ويمتلئ ، ثم ينبثق منه اللبن بغزارة . ووجد أبو بكر حجراً به تجويف فأتى به ، وملأه باللبن ، وشرب هو وصاحبه ، ثم أعطيا عبد الله فشرب معهما ، وهو لا يصدّق ما تراه عيناه ، إذ لم يكن يعرف أن الرجلين اللذين أمامه هما النبيّ وصاحبه أبو بكر الصدِّيق .

وتضاعفت الدهشة عند عبد الله بن مسعود عندما قال الرجل المبارك لضرع الشاة : اقْبِضْ ، فظل الضرع ينقبض شيئاً فشيئاً حتى عاد إلى حالته الأولى .. فما كان من عبد الله إلاّ أن قال للنبيّ ، وهو ما زال لا يعرفه : علّمني من هذا القول الذي قلتَه ، فقال له : إنك غلام مُعَلَّم .

وانبهر عبد الله بن مسعود حين رأى ما رأى ، وما كان يدري يومها ، أنه إنما يرى أهون المعجزات وأقلّها شأناً ، وأنه عما قريب سيشهد من هذا الرسول الكريم معجزات تهزّ الدنيا ، وتملؤها هُدىً ونوراً .. وما كان يدري يومها أنه وهو هذا الغلام الفقير الضعيف الأجير الذي يرعى غنم " عُقبة بن أبي مُعَيْط " ، سيكون إحدى هذه المعجزات ، يوم يخلق الإسلام منه مؤمناً يهزم بإيمانه كبرياء قريش ، ويقهر جبروت سادتها .

وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى أسلم عبد الله بن مسعود ، وطلب من رسول الله أن يقبله ليكون في خدمته ، فاستجاب له النبيّ صلى الله عليه وسلم وجعله في خدمته .

وأحب عبدُ الله الرسولَ حباً كبيراً ملك عليه مشاعره ، وكذلك أحبّه الرسول الكريم ، وتوسّم فيه الخير .. وهكذا أكرم الله هذا الغلام بملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته ، وفي خارج البيت ، وكان يرافقه في كل ترحاله .. ومن شدّة حبه لرسول الله كان يُصِرُّ على أن يُلْبِسَهُ نَعْلَيْه عند الخروج ، ويخلعهما إذا دخل البيت ، وكان يحمل عصاه وسواكه ، وكان يوقظه من النوم ، كما كان يستره عندما يغتسل .

كم كان عبد الله محظوظاً بهذه الصحبة الكريمة ، وقد زاده شرفاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمح له بالدخول عليه متى شاء ، ومعرفة أسراره دون تحرُّج ولا تأثُم ، حتى أُطْلِقَ عليه " صاحب سرّ رسول الله " .

أيّ شرف كبير وأيّ حظ عظيم هذا الذي ناله عبد الله بن مسعود أن تكون تربيته في بيت رسول الله ، فأخذ منه وتتلمذ على يديه ، واهتدى بهديه ، وتخلّق بأخلاقه ، واتصف بصفاته ، فكان النبيّ خير قدوة له ، حتى قالوا عنه : إنه أقرب الناس إلى النبيّ هَدْياً وخُلُقاً .

وهكذا آمن عبد الله بن مسعود قبل أن يدخل الرسول الكريم دار الأرقم بن الأرقم ، وأصبح سادس ستة أسلموا واتّبعوا الرسول الكريم .. وكان بيت الرسول الكريم بالنسبة لابن مسعود بمثابة المدرسة الداخلية التي يتعلم فيها على يدي أعظم معلّم ، ولذلك أصبح بن مسعود من أكفأ الصحابة قراءة للقرآن ، وأكثرهم فقهاً لمعانيه ، وأغلبهم عِلْمًا بشرع الله .

ومن الأمثلة التي تدل على ذلك ، أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب أثناء وقوفه بعرفة وقال له : جئتُ يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وتركتُ هناك رجلاً يُمْلي المصاحف عن ظهر قلبه .. فلما سمع عمر ذلك غضب غضباً شديداً وقال : من هو وَيْحَكَ ؟!. فقال الرجل : عبد الله بن مسعود .

وهنا بدأ الغضب يذهب عن وجه الفاروق عمر ، حتى عاد إليه الهدوء ثم قال للرجل: وَيْحَكَ.. والله ما أعلم أنه بقي أحد من الناس أحق بهذا الأمر منه ، وسأحكي لك عن ذلك .. وقال عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبي بكر ذات ليلة يتفاوضان في أمر المسلمين ، وكنتُ معهما ، ثم خرج الرسول وخرجنا معه ، فإذا

رجل قائم يصلّي بالمسجد لم نعرفه .. فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ، ثم التفت إلينا وقال : (مَنْ سرَّهُ أن يقرأ القرآن رطباً كما نَزَلَ فليقرأْهُ على قراءة بن أم عبد) .

وبعد أن انتهى عبد الله من صلاته جلس يدعو الله ، والرسول يقول له : (سَلْ تُعْطَهُ .. سَلْ تُعْطَهُ) .. ويقول عمر : فقلتُ في نفسي : والله لأغْدُوَنَّ على عبد الله بن مسعود ولأبشِّرَنَّهُ بتأمين الرسول على دعائه ، فغدوتُ عليه فبشَّرته ، فوجدتُ أبا بكر قد سبقني إليه فبشَّره .. ولا والله ما سابقتُ أبا بكر إلى خير قط إلاّ سبقني إليه .

وكان عبد الله بن مسعود من أحرص الناس على الاستزادة من العلم بكتاب الله ، وكان رضي الله عنه يقول : والله الذي لا إله غيره ، ما نزلتْ آية من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم أين نزلت وأعلم فيم نزلتْ ، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تناله المُطِيُّ لأتَيْتُه .

وما قاله بن مسعود عن نفسه لم تكن فيه مبالغة ، وقد حدث أن كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سَفَرٍ من أسفاره ، ولَقِيَ قافلة ، وكان الليل حالكاً ، لا يُظْهِرُ مَنْ في القافلة ، وتصادف أن كان عبد الله بن مسعود في هذه القافلة . فأمر عمر رجلاً أن ينادي في القافلة :

من أين القوم ؟؟..

فأجابه عبد الله : من الفج العميق .

فقال عمر : أين تريدون ؟

فقال عبد الله : البيت العتيق .

فقال عمر : إن فيهم عالِماً ... وأمر عمر رجلاً فناداهم : أيُّ القرآن أعظمُ ؟

فأجابه عبد الله : [اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلانَوْمٌ] " ٢٥٥ البقرة ".

قال عمر : نادِهِمْ أيُّ القرآن أحْكَمُ ؟

فقال عبد الله :[إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى] "٩٠ النحل".

فقال عمر : نادِهِمْ أيُّ القرآن أجمعُ ؟

فقال عبد الله:[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] "٨،٧ الزلزلة".

فقال عمر : نادِهِمْ أيُّ القرآن أخوَفُ ؟

فقال عبد الله : [لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا بِأَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلانَصِيرًا] "١٢٣ النساء".

فقال عمر : نادِهِمْ أيُّ القرآن أرْجَى ؟

فقال عبد الله : [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] "٥٣ الزمر" .

فقال عمر : نادِهِمْ ، أفيكم عبد الله بن مسعود ؟

قالوا : اللهمَّ نعم .

وكان عبد الله بن مسعود بالإضافة إلى جودة قراءته للقرآن وعلمه بأحكامه وحسن عبادته وزهده ، كان مجاهدًا شجاعًا وحازمًا وقت الشدائد . . ويكفي عبد الله بن مسعود فخرًا أنه أوّل مسلم يجهر بقراءة القرآن بعد الرسول ، دون أن يخشى بطش المشركين .

ومن شجاعته في الله أن كان صحابة رسول الله مجتمعين في مكة ، وكانوا حينئذ مستضعفين ، فقالوا : والله ما سَمِعَتْ قريش هذا القرآن يُجْهَرُ لها به قط ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ إيَّاه ؟!..

فقال عبد الله بن مسعود : أنا أُسْمِعُهُم إيَّاه .. فقالوا : إنَّا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة تحميه وتمنعه منهم إذا أرادوه بشرّ .. فقال عبد الله : دعوني فإن الله سيمنعني ويحميني .

ثم ذهب إلى المسجد حتى أتى مقام إبراهيم في الضحى ، وكان أهل قريش جالسين حول الكعبة ، فوقف عبد الله عند مقام إبراهيم وقرأ بصوت عالٍ : [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ، الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ..] " ١-٤ الرحمن " .. واستمرّ عبد الله في قراءته .

واغتاظت قريش وقالت : ماذا يقول بن أم عبد ؟!.. تبًّا له .. إنه يتلو بعض ما جاء به محمد .. وقاموا وذهبوا إليه حيث يقرأ ، وجعلوا يضربونه على رأسه وعلى وجهه كي يُسْكِتُوه ، ولكنه كان مستمرًا في القراءة رغم الضربات التي كانت تنهال عليه ، حتى بلغ من القراءة ما شاء الله له أن يقرأ .. ثم تركهم وذهب إلى أصحابه ، فرأوا الدماء تسيل منه ، فقالوا له : هذا الذي كنا نخشاه عليك . فقال : والله ما كان أعداء الله أهون في عيني منهم الآن ، وإن شئتم لأُغْرُجَنَّ لهم في صباح الغد بمثلها .. فقالوا : حَسْبُكَ .. لقد أسمعتهم ما يكرهون .

نعم .. ما كان بن مسعود يوم بَهره الضَّرع الذي امتلأ باللبن فجأةً وقبل أوانه .. ما كان يومها يعلم أنه هو ونظراؤه من الفقراء والبسطاء ، سيكونون إحدى معجزات الرسول الكبرى ، يوم يحملون راية الله ، ويقهرون بها الظلم والظالمين !!..

ولكن سرعان ما جاء اليوم ، ودقت الساعة ، وصار الغلام الأجير الفقير الضائع .. معجزة من المعجزات !!.. ولم تكن لِتَقَعَ عليه العين في زحام الحياة ..بل ولا بعيدًا عن الزحام !!..فلم يكن يجلس بين الذين أوتوا بَسْطَةً في المال ، ولا بين الذين أوتوا بسطة في الجسم ، ولا بين الذين أوتوا نصيبًا من السُّلطة أو الجاه .. فهو إلى المال فقير ، وإلى قوّة الجسم ضعيف ، وهو من السلطة والجاه بعيد بعيد .. ولكن الإسلام يمنحه ما هو أغنى من المال ، وما هو أقوى من الجسم، وما هو أفضل من الجاه .. ومنحه الإسلام إرادةً تقهر الجبّارين ، وتُسهم في تغيير مسيرة التاريخ .

ولقد صدقت فيه نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم قال له : (إنك غلام مُعَلَّم) .. فقد علّمه ربُّه ،حتى أصبح فقيه الأمّة ، وعميد حَفَظَة القرآن .. ويقول عبد الله بن مسعود عن نفسه : (أخَذْتُ من فَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبْعِينَ سُورة ، لا ينازعني فيها أحد) .

ولَكَأنَّ الله تعالى أراد أن يضاعف أجره حين خاطر بحياته في سبيل أن يجهر بالقرآن ويذيعه في كل مكان بمكة أثناء سنوات الاضطهاد والعذاب ، فمنحه الله تعالى موهبة الأداء الرائع في تلاوته ، والفهم السديد في إدراك معانيه .. ولقد كان الرسول يوصي أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود فيقول : (تمسّكوا بعهد ابن أم عبد) .. وكان يوصيهم بمحاكاة قراءته ، وأن يتعلّموا منه كيف يتلون القرآن ، فيقول عليه الصلاة والسلام : (مَنْ أَحَبَّ أن يسمع القرآن غضًّا كما أُنْزِلَ فَلْيَسْمَعْهُ من ابن أم عبد) ، كما كان يقول : (مَنْ أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ على قراءة ابن أم عبد) !!..

ولطالما كان يطيب للرسول صلى الله عليه وسلم أن يستمع للقرآن من فم ابن مسعود !!.. ودعاه الرسول يومًا ، وقال له : (اقرأ عليّ يا عبد الله) .
قال عبد الله : " أقرأ عليك ، وعليك أُنزِلَ يا رسول الله ؟!..
فقال له الرسول : (إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري) ..
فأخذ ابن مسعود يقرأ من سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى :
[فَكَيْفَ إِذَاجِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِشَهِيدًا ، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ.. وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا] "النساء ٤١،٤٢".. فغلب البكاء رسول الله ، وفاضت بالدموع عيناه ، وأشار بيده إلى ابن مسعود أن : (حَسْبُكَ .. حَسْبُكَ يابن مسعود) .

ولقد شهد له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسَّبْقِ في الفقه والعلم بكتاب الله ، فقال عنه عمر بن الخطاب : (لقد مُلِئَ فِقْهًا) ..

وقال أبو موسى الأشعري: (لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الْحَبْرُ فيكم) ..

وكان سَبْقُهُ أيضًا في الورع والتقوى ، فقال عنه حُذَيْفَة :
(ما رأيتُ أحدًا أشبه برسول الله في هَدْيِهِ ، ودلّه، وسَمْتِه من ابن مسعود) ..

واجتمع نَفَرٌ من الصحابة يومًا عند علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه فقالوا له :
(يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلُقًا ولا أرفق تعليمًا ، ولا أحسن مجالسةً ، ولا أشدّ وَرَعًا من عبد الله بن مسعود) .. فقال عليّ :
(نَشَدْتُكُمُ الله .. أهُوَ صِدْقٌ مِنْ قلوبكم ؟؟).. فقالوا : نعم .

فقال عليّ : (اللهم إني أُشهِدُكَ.. اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا ، أو افضل .. لقد قرأ القرآن فأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه .. فقيةٌ في الدّين ، عالِمٌ بالسُّنّة) ..

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون عن عبد الله بن مسعود : (إنْ كان لَيُؤْذَنُ له إذا حُجِبْنا ، ويَشْهدُ إذا غِبْنا) .. وهم يعنون بذلك أن عبد الله رضي الله عنه كان يحظى عند الرسول الكريم بفرص لم يحْظَ بها سواه ، فيدخل عليه بيته أكثر مما يدخل غيره ، ويُجالسه أكثر مما يُجالسه سواه .. وكان دون غيره من الصحاب موضع سرّه ، حتى كان يُلَقّبُ أحيانًا بصاحب السَّواد " أي صاحب السرّ" .

يقول أبو موسى الأشعريّ رضي الله عنه : (لقد رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وما أرى إلاّ ابن مسعود من أهله) ..حتى قال الرسول فيه : (لو كنتُ مُؤَمِّرًا أحدًا دون شُورَى المسلمين ، لأمّرْتُ ابن أم عبد) ..

وكان شديد القرب من الرسول الكريم الذي قال له : (إذْنُكَ عَلَيَّ أن ترفع الحجاب) .. أي يحق له أن يطرق باب الرسول صلى الله عليه وسلم في أي وقت يشاء من ليل أو نهار .. ورغم هذه المَزيَّةِ الفريدة لابن مسعود دون غيره ، إلاّ أنه لم يَزْدَدْ بها إلاّ خشوعًا وإجلالاً وأدبًا ..
وخير ما يُصَوِّرُ هذا الخُلُقَ عنده ، مظهره حين كان يُحَدِّثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته .. فعلى الرغم من ندرة تحدُّثه عن الرسول الكريم ، نجده إذا حرّك شفتيه ليقول :
(سمعتُ رسول الله يحدّثُ ويقول ..) ، تأخذه الرِّعدة الشديدة ويبدو عليه الاضطراب والقلق ، خشية أن ينسى فيضع حَرْفًا مكان حرف !!..

ويقول عنه عمرو بن ميمون : (اختلفتُ إلى عبد الله بن مسعود سَنَةً ، ما سمعتُه يُحَدِّثُ فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلاّ أنه حدَّث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ، فعلاه الْكَرْبُ حتى رأيتُ الْعَرَقَ يتحدَّر عن جبهته ، ثم قال : - مستدركًا - قريبًا من هذا قال الرسول) !!..

ويقول عَلْقَمَةُ بنُ قَيْس : (كان عبد الله بن مسعود يقوم عشيَّةَ كل خميس متحدِّثاً ، فما سمعتُه في عشيَّةٍ منها يقول: قال رسول الله غير مرّة واحدة .. فنظرتُ إليه وهو مُعْتَمِدٌ على عصا ، فإذا عصاه ترتجف وتَتَزَعْزَعُ) !!..

ويقول " مَسْرُوق " عن عبد الله بن مسعود : (حدَّث ابن مسعود يومًا حديثًا فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ثم أُرْعِدَ وَأُرْعِدَتْ ثيابه .. ثم قال : أو نحو ذا .. أو شِبْهَ ذا) !!..

أرأيتَ أيها القارئ إلى أيّ مدىً بلغ إجلال عبد الله بن مسعود وتوقيره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! .. فالرجل الذي عاصر الرسول الكريم أكثر من غيره ، كان إدراكه لجلال هذا الرسول العظيم إدراكًا سديدًا .. ولهذا كان أدبه مع الرسول الكريم في حياته ، ومع ذكراه في مماته ، كما كان أدبه مع الناس ، أدبًا فريدًا .. فقد عرف أنه لا يَكُبُّ الناس في نار جهنّم إلاّ حصاد ألسنتهم ، وسمع الرسول الكريم يقول: (ما بُعِثْتُ لَعَّانًا ولا شَتَّامًا ولا فَحَّاشًا) .. كما سمعه يقول : (المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده) ، ولهذا فقد حرص على حِفْظِ لسانه ، فلم يَغْتَبْ أحدًا ، ولم يَسُبَّ أحدًا ، ولم يقابل الإساءة بمثلها ، بل كان يقابلها بالإحسان ، ولم يشغل لسانه في معظم وقته إلاّ بذكر الله ، فزرع الله له الحب في قلوب الناس ..

فالألسنة التي يشغلها أصحابها بِسَبِّ هذا وشَتْمِ ذاك ، هي سهام تودي بأصحابها إلى نار جهنّم ، وتكون مرآةً لقلوب صَدِئَةٍ قد خَلَتْ من نور الإيمان .

ومن حظ عبد الله بن مسعود أنه شاهد جميع الغزوات .. وكان له يوم بدر شأن كبير مع أبي جهل الذي حصدته سيوف المسلمين في ذلك اليوم العظيم .. وعرف خلفاء الرسول وأصحابه قدره .. فولاّه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على بيت مال الكوفة ، وقال لأهلها حين أرسله إليهم : (إني والله الذي لا إله إلاّ هو ، قد آثَرْتُكم به على نفسي ، فخذوا منه وتعلّموا) ..

ولقد أحبَّه أهل الكوفة حُبًّا لم يَحْظَ بمثله أحد قبله ، ولا أحد بعده .. وإجماع أهل الكوفة على حبِّ إنسان ، كان أشبه بالمعجزات .. وذلك لأنهم كانوا معروفين بالتمرُّد والثورة ، ولا يصبرون على طعام واحد ، ولا يطيقون الهدوء والسلام .

ولقد تجلّى حب أهل الكوفة له حين أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يعزله عن الكوفة ، فتجمّعوا حوله ، وأحاطوا به ، وقالوا له : " أقِمْ معنا ولا تخرج ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه منه " .. ولكن ابن مسعود ردَّ عليهم بعبارة تشهد على عظمة نفسه وتقاها ، إذ قال لهم : (إنّ له عليّ الطاعة ، وإنها ستكون أمور وفتن ، ولا أُحِبُّ أن أكون أوّل من يفتح أبوابها) ..

إنَّ هذا الموقف المُدْرِكَ لمسئولية المحافظة على وحدة الجماعة حدث رغم الحوار والخلاف الذي جرى بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان ، والذي أدّى إلى حَجْبِ راتب ومعاش عبد الله بن مسعود من بيت المال .. ومع ذلك لم يذكر عن عثمان كلمة سُوءٍ واحدة ..

والأعظم من ذلك أنه عندما رأى التذمُّر في عهد عثمان يتحوّل إلى ثورة ، وقف عبد الله مدافعًا .. وعندما بلغه محاولات اغتيال الخليفة عثمان ، قال عبارته المأثورة : (لَئِنْ قتلوه ، لا يستخلفون بعده مثله) ..

ويقول بعض أصحاب ابن مسعود : ما سمعنا ابن مسعود يقول في عثمان سُبَّةً قطّ) !!..

وكما أُوتِيَ عبد الله التقوى ، فقد أُوتِيَ أيضًا الحكمة ، ومن كلماته الحكيمة :(خيرُ الغِنَى غِنَى النفس ، وخيرُ الزاد التقوى ، وشرُّ العَمَى عَمَى القلب ، وأعظمُ الخطايا الكذِب ، وشرُّ المكاسب الرِّبا ، وشرُّ المأكل اليتيم ، ومَنْ يَعْفُ ، يَعْفُ اللهُ عنه ، ومَنْ يَغْفِرْ ، يَغْفِرُ اللهُ له) ..

أرأيتم كيف كان عبد الله بن مسعود ؟؟!!.. وكيف كانت حياته عظيمة ، عاشها في سبيل الله ورسوله ودينه .. هذا الرجل الذي كان صغير الحجم ، نحيفًا ، قصيرًا ، يكاد الجالسُ يوازيه طولاً وهو قائم.. ساقاه ناحلتان دقيقتان .. صعَدَ بهما يومًا أعلى شجرة ، يجتني منها أراكًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلما رأى أصحاب النبيّ دِقَّةَ ساقَيْه ضحكوا .. فقال عليه الصلاة والسلام : (تضحكون من ساقَيِ ابن مسعود .. لَهُمَا أثْقَلُ في الميزان عند الله من جبل أُحُد) ..

ولقد نال من توفيق الله تعالى ومن نعمته وفضله ما جعله أحد العشرة الأوائل الذين بُشِّرُوا بالجنّة .. وشارك في المعارك مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع خلفائه من بعده .. وشهد أعظم إمبراطوريتين في عصره تفتحان أبوابَهما طائعة لرايات الإسلام .

كما رأى المناصب تبحث عن شاغليها من المسلمين والأموال الكثيرة تمتلئ بها أيديهم ، فما شغله من ذلك شيء عمّا عاهد عليه الله ورسوله ..

وكانت له أُمنية واحدة ، يحنُّ إليها ، ويردّدُها دائمًا ، ويتمنّى لو أنه أدركها .. وتتجلّى هذه الأمنية في كلماته التي قال فيها : (قُمْتُ من جَوْفِ الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه في غزوة تبوك .. فرأيتُ شُعْلَةً من نار في ناحية العسكر ، فاتَّبَعْتُها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ، وأبو بكر وعمر ، وإذا " عبد الله ذو الْبِجَادَيْنِ الْمُزَنِيُّ " قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته وأبو بكر وعمر يُدَلِّيَانِهِ إليه ، والرسول يقول : (أَدْنِيَا إليَّ أخاكما) .. فدلّياه إليه ، فلما هيَّأه لِلَحْدِه قال : (اللهم إني أَمْسَيْتُ عنه راضيًا فَارْضَ عنه) .. فياليتني كنتُ صاحبَ هذه الحفرة)!!..

هذه كانت أُمنية عبد الله الوحيدة في الحياة .. أُمنيةٌ ليست كالأمانيِّ التي يتهافتُ الناس ويتنافسون ، ويتصارعون عليها .. من أمجاد زائلة ، ومناصب لا تدوم ،، ويحرصون عليها حتى ولو باعوا ضمائرهم وخانوا دينهم .. وينسون أو يتناسون أن كل ما يتصارعون عليه ، مآله إلى زوال !!..

وفي عهد خلافة عثمان رضي الله عنه ، مَرِضَ عبد الله بن مسعود ، فجاءه عثمان عائدًا ، فقال له عثمان : مِمَّ تَشْكِي يا عبد الله ؟

فقال عبد الله : ذُنُوبِي .

قال عثمان : وماذا تشتهي ؟

قال عبد الله : رحمةَ ربّي .

قال عثمان : ألا آمُرُ لك بعطائك الذي امتنعتَ عن أخْذِهِ منذ سنين ؟!..

فقال عبد الله : لا حاجة لي به .
قال عثمان : يكون لبناتك من بعدِك .
فقال عبد الله : أتخشى على بناتي الفقر ؟!.. إني أَمَرْتُهُنَّ أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة.. وإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنْ قرأ الواقعة كل ليلة لم تُصِبْهُ فَاقَةٌ أبدًا) .

هكذا كان إيمان عبد الله بن مسعود ، وثقته في الله سبحانه وتعالى ، فلم يَخْشَ على بناته الفقر .. ولما أقبل الليل ، صَعُدَتْ روحه الطاهرة إلى بارئها ولسانه رطبٌ بِذِكْرِ الله .

فهنيئًا لك يا عبد الله بن مسعود ، ما أعَدَّ الله لك من جزاءٍ وحُسْنِ ثواب !!..

سَـلْـمَـانُ الْـفَـارِسِـيّ

كان سلمان الفارسيّ فتىً من أهل " أصْـبَهَان " ، من قرية تُسَمَّى " جَيَّان " . وكان أبوه " دُهْقَانَ " القرية ، أي رئيسها ، وأغنى أهلها وأعلاهم مكانة ، وكان أبو سلمان يحبه منذ ولادته ، وكان هذا الحب يزداد مع الأيام ، كما كان يخاف عليه بقدر هذا الحب حتى حبسه في البيت من شدّة خوفه عليه .

وكان سلمان قد اجتهد في " المجوسيّة " وهي الدّيانة التي كان يعبد أصحابُها النار أو الشمس ، حتى صار سلمان " قَـيِّـمَ " النار التي كانوا يعبدونها ، وقد أُوكِلَ إليه أمر إشعالها حتى لا تخبو ليلاً أو نهارًا .

وكان لأبيه ضيعة كبيرة يجني منها غلّة كثيرة ، وكان أبوه هو الذي يشرف على الضّيعة ويجني غلتها ..وذات مرّة كان أبوه مشغولاً عن الذهاب إلى القرية ، فكلّف ولده سلمان بالذهاب إلى الضّيعة وتولّي أمرها .. وبينما كان سلمان في الطريق ، مرّ بكنيسة من كنائس النصارى ، وسمع أصواتهم وهم يُصلّون .. فلفت ذلك انتباهه ، ولم يكن يعرف شيئًا من أمر النصارى أو غيرهم من أصحاب الدّيانات الأخرى بسبب احتجابه في البيت .. وأراد سلمان أن يرى ما يصنع النصارى داخل الكنيسة ، فدخل إليها ، واستمع إلى صلواتهم فأعجبته ورغب في دينهم ، وقال في نفسه : والله هذا خير من الذي نحن عليه ، فظل معهم حتى غربت الشمس ولم يذهب إلى ضيعة أبيه ، ولما سألهم عن مكان أصل هذا الدين ، أخبروه بأنه في بلاد الشام .

ولما عاد إلى بيته مع بداية الليل سأله أبوه عما صنع في الضيعة ، فحكى لأبيه ما حدث من أمر دخوله الكنيسة وإعجابه بما رأى ، فتملّك أباه الذعر وقال له : يا بنيّ ، لا خير في ذلك الدين ، فدينك ودين آبائك خير منه .

فقال سلمان لأبيه : كلاّ ، إنّ دينهم خير من ديننا ، فخاف أبوه أن يرتدّ سلمان عن دينه ، فعاد إلى حبسه في البيت ، ووضع قيدًا في رجليه .. ومع ذلك استطاع سلمان أن يبعث إلى النصارى يطلب منهم أن يُعْلِمُوه إذا قَدِمَ عليهم رَكْبٌ يريد الذهاب إلى بلاد الشام .

وعندما وصل الركب المتجه إلى بلاد الشام أخبروه ، فجعل يحاول فك قيده حتى نجح ، وخرج مع الركب متخفّيًا حتى وصلوا بلاد الشام ، وهناك سأل سلمان عن أفضل رجل من أهل دين النصارى ، فأخبروه بأنه " الأسقف " راعي الكنيسة ، فذهب إليه ، وأخبره برغبته في النصرانية ، وأنه يحب أن يلزمه ويخدمه ويتعلّم منه ويصلّي معه .. فاستجاب لرغبته الأسقف .. واكتشف سلمان بعد فترة أن الأسقف رجل سُوء ، لأنه كان يأمر بالصدقة ويُرَغّبُ في ثوابها ، ولكنه كان يجمعها ويكتنزها لنفسه ولا ينفق منها في سبيل الله ولا يعطي الفقراء منها شيئًا، حتى جمع سبع قلال من الذهب ، وكان ذلك سببًا لأن يكرهه سلمان .. فلما مات الأسقف واجتمعت النصارى لدفنه ، أخبرهم سلمان بحقيقة الرجل ، وأنه رجل سُوء ، فسألوه كيف عرف ذلك ، فدلّهم على مكان الكنز الذي اكتنزه الأسقف فاستخرجوه ، ولما رأوا الذهب والفضة التي جمعها الأسقف لنفسه ولم ينفقها في سبيل الله قرروا ألاّ يدفنوه ، ثم صلبوه ورجموه بالحجارة .

ولما عيّنوا أسقفًا جديدًا لزمه سلمان ، ووجد فيه رجلاً زاهدًا في الدنيا ، راغبًا في الآخرة ، ومواظبًا على العبادة ليلاً ونهارًا ، فأحبه سلمان حبًا عظيمًا .. فلما حضرت الأسقف الوفاة سأله سلمان وقال : إلى مَنْ تُوصِي بي ، ومع من تنصحني أن أكون من بعدك ؟ .. فقال له الأسقف : يا بنيّ ، لا أعلم أحدًا على ما كنتُ عليه إلاّ رجلاً بالموصل هو فلان ، لم يُحَرِّفْ ولم يُبَدِّلْ ، فالْحَقْ به .

فلما مات الأسقف ذهب سلمان إلى الموصل والتقى بالرجل ، وأخبره بأن صاحبه أوصاه عند موته بأن يلحق به وأن يقيم معه ، وسمح له الرجل بأن يقيم معه ، فوجده على خير حال ، ولما حضرته الوفاة قال له سلمان : إلى من توصي بي وتأمرني باللحاق به ؟ فقال الرجل : والله ما أعلم أن رجلاً على مثل ما كنا عليه إلاّ رجلاً بنصّيبين، وهو فلان فالحقْ به .. فلما مات الرجل ذهب سلمان ولحق برجل " نصّيبين " وأخبره بوصية صاحبه ، فأذن له بالإقامة عنده ، فوجده على ما كان عليه صاحباه من الخير .. فلما حضرته الوفاة قال له سلمان : إلى من توصي بي ؟ فأخبره برجل في " عمّورية " فذهب إليه وأخبره بقصته ، فأذن له بالإقامة عنده ، وكان الرجل على هَدْيِ أصحابه ، واستطاع سلمان وهو عند الرجل أن يكتسب بقرات وغُنَيْمَة .. ولما حضرت الرجل الوفاة قال له سلمان : إلى من توصي بي ؟

فقال الرجل : والله ما أعلم أن هناك أحدًا من الناس بَقِيَ على ظهر الأرض مستمسكًا بما كنا عليه ، ولكنه قد اقترب زمان يخرج فيه بأرض العرب نبيٌّ يُبْعَثُ بدين ابراهيم ، ثم يهاجر من أرضه إلى أرض ذات نخل بين حرّتين (أي أرض ذات حجارة سود نخرة) ، وله علامات لا تخفى ، فهو يأكل الهديّة ، ولا يأكل الصّدقة ، وبين كتفيه خاتم النّبوّة ، فإن استطعتَ أن تلحق به فافعل .

فلما مات الرجل ، مكث سلمان بعمّورية زمنًا حتى مرّ بها بعض التجار من العرب من قبيلة " كَلْب" .. فقال لهم سلمان : إن حملتموني معكم إلى أرض العرب، أعطيكم بقراتي وغنيمتي ، فوافقوا ، وحملوه معهم ، ولما بلغوا وادي القرى (بين المدينة والشام) غدروا به وباعوه لرجل يهوديّ .. وقام سلمان بخدمته .. وحدث أن زار اليهوديَّ ابنُ عم له ، من بني قريظة فاشترى سلمانَ من ابن عمّه ، وأخذه معه إلى يثرب " المدينة " ، ولما دخلها سلمان رأى النخل الذي ذكره له صاحبه بعمورية ، وأقام سلمان بالمدينة .

وكان النبيّ حينئذ يدعو قومه في مكة ، ولكن سلمان لم يسمع بأمر هذه الدعوة إلاّ بعد أن هاجر الرسول إلى يثرب .. وبينما كان سلمان يعمل في رأس نخلة لسيّده الذي كان يجلس تحتها ، إذ جاءه ابن عم له وقال له : قاتل الله بني " قَيْلَة " وهم الأوس والخزرج ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء ، على رجل قَدِمَ عليهم اليوم من مكة يزعم أنه نبيّ .

وبمجرّد أن سمع سلمان ما قاله الرجل حتى شعر باضطراب شديد حتى خاف أن يسقط على سيده ، وأسرع بالنزول وقال للرجل : ماذا تقول ؟ أعِدْ عليّ الخبر ، ولكن سيده غضب ولكمه بشدّة وقال له : مالك ولهذا ؟! .. عُدْ إلى عملك .. فعاد سلمان ولكنه كان شغوفًا بمعرفة أمر ذلك الرجل الذي يقول إنه نبيّ .. ولما جاء المساء أخذ سلمان شيئًا من تمر ، وذهب به إلى حيث يجلس الرسول وقال له : بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ، ثم قرّب سلمان التمر إلى الرسول ، فقال لأصحابه : كلوا .. ولكنه لم يأكل معهم .. فقال سلمان في نفسه : هذه واحدة (أي من العلامات التي أخبره بها صاحبه في عمورية من صفات النبيّ) .. ثم انصرف سلمان وراح يجمع بعض التمر ، وعاد إلى النبيّ وقال له : إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها ، فأكل النبيّ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه .. فقال سلمان في نفسه : هذه الثانية .

ولما كان الرسول ببقيع الغَرْقَد حيث كان يواري أحد أصحابه ، جاءه سلمان وسلم عليه ، ثم استدار ، وأخذ ينظر إلى ظهره لعله يرى خاتم النبوّة ، فلما رآه النبيّ ينظر إلى ظهره عرف قصده ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظر سلمان إلى ظهر النبيّ فرأى الخاتم فعرفه ، فانكبّ عليه يُقَبِّلُهُ وهو يبكي .. فقال له الرسول : ما خَبَرُكَ ؟!.. فقص عليه سلمان قصته فأُعجِبَ بها النبيّ وسرّه أن يسمعها أصحابه ، وطلب من

سلمان أن يقصها على أصحابه ، فحكى لهم سلمان قصته ، فعجبوا أشدّ العجب ، وسُرُّوا بها سرورًا عظيمًا .

ويقول سلمان : وأسلمت .. وحال الرّق بيني وبين شهود بدر وأُحُد .. وذات يوم قال لي الرسول صلى الله عليه وسلم : (كاتِبْ سَيِّدَكَ كي يُعْتِقَكَ) فكاتبته ، وأمر الرسول الصحابة كي يعاونوني ، وحرّر الله رقبتي ، وعشتُ حرًّا مسلمًا ، وشهدتُ مع الرسول غزوة الخندق والمشاهد كلها .

ومن هنا بدأت أجمل فترة في حياة سلمان الفارسيّ حيث هداه الله إلى معرفة الحق الذي آمن به أشدّ الإيمان ، واطمأنت إليه نفسه .. وبدأ هذا البطل الذي جاء من بلاد فارس يشكل أسطورة أخرى من أساطير الإيمان .. ومن بلاد فارس عانق الإسلامَ الكثيرون ممن آمنوا به ، وأصبحوا أفذاذًا لا يُجَارُون في الإيمان ، وفي العلم ، وفي الدين ، وفي الدنيا . . وإنها لإحدى روائع الإسلام ، ألاّ يدخل بلدًا من بلاد الله إلاّ ويثير في إعجاز بالغ ، كل نبوغها ، ويُخرِجُ العبقرية الكامنة في أهلها وذويها .. فيبرز الفلاسفة المسلمون ، والأطباء المسلمون ، والفقهاء المسلمون ، وعلماء الرياضة المسلمون ، والفلكيون المسلمون ، والمخترعون المسلمون !!

ولقد تنبأ الرسول الكريم بهذا المدّ المبارك لدينه ، وَوُعِدَ به وَعْدَ صدق من ربّه العليم .. ولقد زُوِيَ له الزمان والمكان ذات يوم ، ورأى رَأْيَ العين راية الإسلام تخفق فوق مدائن الأرض ، وقصور أربابها . وكان سلمان الفارسي شاهدًا ، وكان له بما حدث علاقة وُثْقَى .

كان ذلك يوم الخندق ، في السنة الخامسة من الهجرة ، إذ خرج نفر من زعماء اليهود قاصدين مكة ومؤلِّبين المشركين ومُحَزِّبِينَ الأحزاب على الرسول والمسلمين ، متعاهدين معهم على أن يعاونوهم في حرب حاسمة تستأصل شأفة هذا الدين الجديد .

واتفق اليهود مع المشركين على أن يهاجم جيش قريش وغَطَفَان " المدينة " من خارجها ، بينما يهاجم بنو قُرَيْظَة من الداخل ، من وراء صفوف المسلمين الذين سيكونون بين شقّيْ رحَى تطحنهم وتبيدهم .. وفوجئ الرسول والمسلمون بجيش كبير يقترب من المدينة في عدّة متفوّقة .. وسُقِطَ في أيدي المسلمين واستبدّت الحيرة بهم من هول المفاجأة ، ولقد صوّر القرآن الموقف فقال :[إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُم وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا] " ١٠ الأحزاب "..

أربعة وعشرون ألفًا من المقاتلين بقيادة أبي سفيان يقتربون من المدينة ليطوّقوها وليبطشوا بالمسلمين وينتهوا من محمد ودينه ، ولم يكن هذا الجيش من قريش وحدها ، بل كان معها كل القبائل التي رأت في الإسلام خطرًا على مصالحها .

وجمع الرسول أصحابه ليشاورهم في الأمر .. وأجمع المسلمون على القتال .. ولكن كيف يكون الدفاع ؟!..فتقدّم سلمان الفارسي وألقى نظرة فاحصة من فوق هضبة عالية على المدينة ، فوجدها محصّنة بالجبال والصخور المحيطة بها .. ولكن هناك فجوة واسعة ممتدّة ، يمكن لجيش المشركين أن يقتحم منها الحِمَى بسهولة .. وكان سلمان قد خَبِرَ في بلاده فارس الكثير من وسائل الحرب وخِدَعِ القتال ، فتقدّم للرسول صلى الله عليه وسلم برأيه الذي لم تعهده العرب من قبل في حروبها .. وكان عبارة عن حفر خندق يغطي جميع المنطقة المكشوفة حول المدينة .. وقُبِلَ رَأْيُ سلمان وحُفِرَ الخندق الذي لم تكد تراه قريش حتى دوّختها المفاجأة ، وظلّت قوّاتها جاثمة في خيامها شهرًا وهي عاجزة عن اقتحام الخندق ، حتى أرسل الله تعالى عليها ذات ليلة ريحَ صَرْصَرٍ عاتية اقتلعت خيامها ، وبدّدت شملها .. فاضطرّ أبو سفيان أن يأمر جيشه بالرحيل إلى حيث جاءوا ، يجرّون أذيال الخيبة والفشل .

عندما كان سلمان يشارك في حفر الخندق مع المسلمين ، اعترضتهم صخرة عاتية ، ورغم أن سلمان كان قويّ البنية إلاّ أنه لم يستطع فلق هذه الصخرة ، فاستعان بمن معه ولكنهم عجزوا عن فلقها .. فذهب سلمان إلى الرسول الكريم يستأذنه في أن يغيّروا مجرى الحفر تفاديًا لتلك الصخرة الصلبة .. وعاد الرسول مع سلمان إلى مكان الصخرة ، وطلب " مُعَوّلاً " ، وأمر أصحابه أن يبتعدوا عن مرمى الشظايا .. وَسَمَّى الله وهوى بالمعول على الصخرة بقوّة ، فإذا بها تنفلق ، ويخرج من ثنايا صدعها وَهَجٌ عالٍ مضيء .. ويقول سلمان : لقد رأيت الوهج يضيء ما بين لابتَيْها ، أي يضيء جوانب المدينة ، وهتف الرسول صلى الله عليه وسلم مكبّرًا :(الله أكبر .. أُعطيتُ مفاتيح فارس ، ولقد أضاء لي منها قصور الحيرة ، ومدائن كِسْرَى ، وإن أمّتي ظاهرة عليها) .. ثم رفع المعول ، وهَوَتْ ضربته الثانية فتكرّر الوهج ، وبرقت الصخرة .. وهلّل الرسول مكبرًا :(الله أكبر ، أُعطيتُ مفاتيح الروم ، ولقد أضاء لي منها قصورها الحمراء ، وإن أمّتي ظاهرة عليها) .. ثم ضرب ضربته الثالثة فانفلقت الصخرة ، وأضاء برقها الشديد .. وهلّل الرسول ومن معه .. وأنبأهم أنه يبصر الآن قصور سورية وصنعاء وغيرها من مدائن الأرض التي ستخفق فوقها راية الله يومًا، وصاح المسلمون : [هَذَا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ .. وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ] ٢٢ " الأحزاب "..

كان سلمان صاحب المشورة بحفر الخندق ، وكان صاحب الصخرة التي تفجّرت منها بعض أسرار الغيب والمصير ، حين استعان عليها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قائمًا بجوار الرسول الكريم يرى الضوء ، ويسمع البشرى .. ولقد عاش سلمان حتى رأى البشرى حقيقة يعيشها ، وواقعًا يحياه ، فرأى مدائن الفرس والروم ، ورأى قصور صنعاء وسورية ومصر والعراق ، وقد ارتفعت عليها أعلام الإسلام !!..

أيّ إنسان شامخ كان سلمان الفارسي ؟!!.. وأيّ إيمان هذا الذي أخرجه من ضياع أبيه وثرائه إلى المجهول بكل أعبائه ، يهيم على وجهه من بلد إلى بلد ، باحثًا عن الحقيقة التي تتوق إليها نفسه ..تفحص بصيرته الناقدة الناس والأديان .. ويضحّي من أجل الوصول إلى الهُدَى ، حتى يُبَاع رقيقًا ثم يجزيه الله ثوابه ، فيجمعه بالحق ، ويلاقيه برسوله ، ثم يمنحه من العمر ما يشهد معه بعينيه رايات الله تخفق في كل مكان .

كيف يكون إسلام رجل بهذه الهمّة وهذا الصدق ؟؟!!..لقد كان إسلامه إسلام الأبرار ، وكان في زهده وورعه أشبه الناس بعمر بن الخطاب .. وأقام سلمان أيامًا مع أبي الدرداء في دار واحدة ، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقوم الليل ويصوم النهار.. وكان سلمان يأخذ عليه مبالغته في العبادة .. وذات يوم حاول سلمان أن يثنيه عن الصوم ، وكان نافلة.. فقال له أبو الدرداء معاتبًا : أتمنعني أن أصوم لربي ، وأصلّي له ؟!..فقال له سلمان : " إن لعينيك عليك حقًا ، وإن لأهلك عليك حقًا ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ " .. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (لقد أُشْبِعَ سلمانُ عِلْمًا..) .وكان الرسول عليه السلام يثني عليه دينه وخُلُقَهُ .. ويوم الخندق ، وقف الأنصار يقولون : سلمان منّا .. ووقف المهاجرون يقولون : بل سلمان منّا ، فناداهم الرسول قائلاً :(سلمان منّا آل البيت) !!.. وإنه بهذا الشرف لجدير !!

وكان عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه يلقّبه بلقمان الحكيم ، وقد سُئِلَ عنه بعد موته فقال : (ذاك امرؤٌ منّا وإلينا أهل البيت .. مَنْ لكم بمثل لقمان الحكيم ؟.. أُوتِيَ العلمَ الأوّل ، والعلمَ الآخر ، وقرأ الكتاب الأوّل والكتاب الآخِر ، وكان بحرًا لا يُنْزَفُ) .

وبلغ سلمان منزلة رفيعة في نفوس جميع الصحابة.. ففي خلافة " عمر بن الخطاب " جاء سلمان المدينة زائرًا ، فلما علم عمر بذلك جمع أصحابه وقال لهم : (هيّا بنا نخرج لاستقبال سلمان) ..وخرج بِهم لاستقباله عند مشارف المدينة .. وعاصر سلمان خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، حيث لقي ربّه أثناء خلافة عثمان .

ولما ارتفعت رايات الإسلام تملأ الأفق ، وكانت الأموال تُحْمَلُ إلى المدينة وتُوَزَّعُ على الناس، لم يكن سلمان يقبل منها شيئًا ، وكان يضفر الخوص ويجدله ويصنع منه أوعية يبيعها .. وكان عطاؤه وفيرًا .. كان بين أربعة آلاف درهم وستة آلاف في العام ، ولكنه كان يوزعه جميعه، ويرفض أن يناله منه درهم واحد ، ويقول : (أشتري خوصًا بدرهم ، فأعمله ، ثم أبيعه بثلاثة دراهم ، فأُعيدُ درهمًا فيه ، وأُنفق درهمًا على عيالي ، وأتصدّق بالثالث .. ولو أن عمر ابن الخطاب نهاني عن ذلك ما انتهيت) !!..

كان سلمان الفارسي من بلاد فارس .. بلاد البذخ والترف والمدنية ، وكان من أغنياء الناس، فإذا به بعد إسلامه يرفض المال والثروة والنعيم ، ويصر على أن يكتفي في يومه بدرهم واحد يكسبه من عمل يده !!.. وكان يرفض الإمارة ويهرب منها ويقول : (إن استطعت أن تأكل التراب ولا تكوننّ أميرًا على اثنين فافعلْ) .. ولم يكن يقبل الإمارة والمنصب ، إلاّ أن تكون إمارة على سريّة ذاهبة إلى الجهاد .. وإلاّ أن تكون في ظروف لا يصلح لها سواه ، فَيُكْرَه عليها إكراهًا ، ويمضي إليها باكيًا خائفًا .. وعندما كان يتولّى هذه الإمارة المفروضة عليه فرضًا كان يأبى أن يأخذ عطاءها الحلال !!.. وكان عطاء الإمارة لسلمان خمسة آلاف ، وكان يخطب في الناس في عباءة يَفْتَرِشُ نصفها ، ويلبس نصفها ، ولم يكن يأخذ من عطاء الإمارة شيئًا ، بل كان يُفَضِّلُ أن يأكل من عمل يده ..

وعندما كان على فراش موته ، دخل عليه " سعد بن أبي وقاص " يعوده ، فبكى سلمان .. فقال له سعد : " ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ .. لقد تُوُفِّيَ رسول الله وهو عنك راض " .

فقال سلمان : " والله ما أبكي جزعًا من الموت ، ولا حرصًا على الدنيا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهَدَ إلينا عَهْدًا ، فقال : (ليكن حظ أحدكم من الدنيا مثْلَ زادِ الرّاكب) وهأنذا حولي هذه الأساود " !!.. يعني بالأساود الأشياء الكثيرة !!..

قال سعد : فنَظَرْتُ ، فلم أجد حوله إلاّ جَفنة ومطهرة ، فقلتُ له : يا أبا عبد الله ، اعهد إلينا بعهد نأخذه عنك .. فقال سلمان : (يا سعد ، اذكر الله عند همّك إذا هممت .. وعند حُكْمِكَ إذا حكمتَ .. وعند يدك إذا قَسَمْتَ) ..

هذا هو سلمان الفارسي ، الذي امتلأت نفسه غِنَىً بقدر ما امتلأتْ زهدًا في الدنيا بأموالها ومناصبها .. عَهْدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى أصحابه جميعًا : ألاّ يَدَعُوا الدنيا تتملّكهم ، وألاّ يأخذ أحدهم منها إلاّ مِثْلَ زادِ الرّاكب.

لقد حفظ سلمان العهد ، ومع ذلك سالت دموعه حين رأى روحه تتهيّأ للقاء ربها ، مخافة أن يكون قد جاوز المَدَى .. لم يكن حوله إلاّ جَفنة يأكل فيها ، ومطهرة يشرب منها ويتوضأ .. ومع هذا كان يعتبر نفسه مُتْرَفاً .

وعندما كان أميرًا على المدائن ، أصرّ على ألاّ يأكل إلاّ من عمل الخوص ، ولم يلبس إلاّ عباءة أكثر تواضعًا من ثوبه القديم .. وذات يوم أثناء سيره في الطريق لقيه رجل من الشام ومعه حِمْلُ تين وتمر ..: وكان الحِمْلُ ثقيلاً على الشاميّ ، فلم يكد يرى أمامه رجلاً يبدو عليه أنه من عامة الناس وفقرائهم .. فأشار الشاميّ للرجل فأقبل

عليه ، وقال له الشاميّ : احمل عني هذا ، فحمله ومضيا معًا .. وإذا هما في الطريق بلغا جماعة من الناس ، فسلّم الرجل عليهم ، فأجابوا واقفين : وعلى الأمير السلام .. فقال الشاميّ في نفسه : أيّ أمير يعنون ؟!.. ولقد استبدّت به الدهشة حين رأى بعض هؤلاء الناس يسارع صوب سلمان ليحمل عنه قائلين : عنك أيها الأمير !!.. فعلم الشاميّ أنه أمير المدائن " سلمان الفارسي " فشعر بالخجل ، واقترب ينتزع الحمل ، ولكن سلمان هزّ رأسه رافضًا وهو يقول : (لا ، حتى أُبْلِغَكَ منزلك) !!..

وسُئِلَ سلمان يومًا : ما الذي يُبْغِضُكَ الإمارة إلى نفسك ؟ فقال : (حلاوةُ رَضَاعِهَا ، ومَرَارَةُ فِطَامِهَا) ..

ويدخل عليه صاحبه يومًا بيته ، فإذا به يعجن ، فسأله : أين الخادم ؟ فيقول سلمان :(لقد بعثناها في حاجة ، فكرهنا أن نجمع عليها عملين) !!..وحين همَّ سلمان ببناء هذا الذي يُسَمَّى بيتًا " تجاوزًا " ، سأل البنّاء : كيف ستبنيه ؟ .. وكان البنّاء ذكيًا ، يعرف زهد سلمان وورعه .. فقال له : لا تخف ، إنّها بناية تستظل بِها من الحر وتسكن فيها من البرد ، إذا وقفتَ فيها أصابت رأسك ، وإذا اضطجعتَ فيها أصابت رِجْلَك ، فقال سلمان : نعم ، هكذا فاصنع .

ولم يكن سلمان يحرص على شيء من طيبات الحياة الدنيا ، إلاّ شيئًا واحدًا كان قد ائتمن عليه زوجته ، وطلب منها أن تخفيه في مكان أمين .. وفي مرض موته ، وفي صبيحة يوم وفاته ، نادى زوجته : (هَلُمِّي خَبِيَّكِ التي استَخْبَأتك) !!..فجاءت بها ، ولم تكن إلاّ صُرَّة مِسْك ، كان قد أصابَها يوم فتح " جَلُولاء " فاحتفظ بها لتكون عطره يوم مماته .. ثم طلب قَدَحَ ماء نثرَ المسك فيه وقال لزوجته : (انضحيه حولي ،

فإنه يحضُرُني الآن خَلْقٌ من خَلْقِ الله ، لا يأكلون الطعام ، وإنما يُحبُّون الطِّيب) .. فلما فعلَتْ قال لها : (اجفَئِي عليّ الباب وانزلي) ففعَلَتْ ما أَمَرَهَا به .

وحين صعدت إليه ، كانت روحه الطاهرة قد فارقت جسده ودنياه .. لقد لحقت روحه بالملأ الأعلى وكأنها على موعد مع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وصاحبيه أبي بكر وعمر ، ومع الشهداء والأبرار .

وسلام على سلمان الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سلمان منّا آل البيت) !!

عَـــدِيٌّ بْـــنُ حَـــاتِـــمِ الـــطَّـــائِـــي

عَدِيٌّ هو بن حاتم الطَّائي الذي يُضرَبُ به المَثَلُ في جوده وكرمه ، وقد ورث عديّ رئاسة القوم عن أبيه ، وبايعته " طَيِّئ " وجعلته ملكًا عليها ، وقائدًا لأمرها ، وجعلت له الرُّبْعَ في غنائمها ، وكان وقتها نصرانيًا .

ولما قرّر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة بين العرب ، وبدأ العرب يؤمنون بدعوة النبيّ فوجًا بعد فوج ، وحيًّا بعد حيّ ، بلغ أمر هذه الدعوة مسامع عديّ بن حاتم ، ورأى في دعوة محمد خطرًا يتهدّد زعامته بين قومه ، وربما تؤدّي في النهاية إلى زوال قيادته ورئاسته ، وكان ذلك سببًا في أن يشعر بالعداوة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، واشتدّت كراهيته له ، رغم أنه لم يكن قد رآه أو سمعه بعد .

واستمرّت عداوة عديّ لدعوة الإسلام فترة طويلة قاربت عشرين عامًا .. وكان قلقه يزداد كلما سمع بانتشار دعوة الإسلام ، وأن جيوش المسلمين كانت تخوض في شرق وغرب أرض العرب ، وبدأ يخشى وصول جيوش المسلمين إليه .

وذات مرّة قال لغلام كان يرعى له الإبل : يا غلام ، أَعْدِدْ لي من إبلي نوقًا سمانًا سهلة القياد ، واربطها قريبًا مني ، فإن رأيتَ أو سمعتَ أن جيش المسلمين قد وصل إلى أرض هذه البلاد فأَعْلِمْني ... وذات يوم أقبل الغلام على عديّ وقال له : يا مولاي ، ما كنتَ تنوي أن تصنعه إذا وَطِئَتْ أرضك خَيْلُ محمد فاصنعه الآن .. فقال عديّ : وَلِمَ ؟ ثَقِلَتْكَ أُمُّكَ ؟

فقال الغلام : إني رأيتُ جيوشًا تجوس خلال الديار وتحمل رايات ، ولما استفسرْتُ عنها علمتُ أنها جيوش محمد .

فقال عديّ : أسرِعْ يا غلام ، وأعْدِدْ لي النوق التي أمرتُك بإعدادها وقرِّبْها مني وقام بعد ذلك عديّ فدعا أهله وأولاده ، وأمرهم بالاستعداد للرحيل .

وبعد أن جهّزوا حوائجهم ومتاعهم أخذوا طريقهم في اتجاه بلاد الشام ، ليلحق بأهل دينهم من النصارى .. وبعد أن اجتازوا مواضع الخطر من الطريق بدأ عديّ يتفقد أهله ليطمئن علي أنهم جميعًا قد جاءوا معه ، فإذا به يكتشف أنه ترك أختًا له في نَجْد ، ورغم أنه حَزِنَ لذلك ، إلاّ أنه لم يستطع الرجوع إليها .. واستأنفوا سيرهم حتى وصلوا إلى بلاد الشام فأقاموا فيها ، ولم يكن يدري ما حدث لأخته التي تركوها في نجد .

وكان دائم السؤال عن أخبار محمد وأتباعه ، وما فعلوه بديارهم في " طَيِّئ "، وأخيرًا عَلِمَ أن رجال محمد أغاروا على ديارهم ، وأخذوا أخته إلى المدينة ضمن من أسروهم من السبايا .. وَوُضِعَتْ أختُ عديّ مع غيرها من السبايا في حظيرة بالقرب من باب المسجد ، وحدث أن مرّ بها الرسول صلى الله عليه وسلم فقامت إليه أخت عديّ وقالت :يا رسول الله ، هَلَكَ الوالد ، وغاب الوافد ، فامْنُنْ عليّ مَنَّ اللهُ عليك .

فقال لها النبيّ : ومَنْ وَافِدُكِ ؟

فقالت : عديّ بن حاتم .

فقال النبيّ : الفارُّ من الله ورسوله ؟!!..ثم تركها وانصرف ، وفي اليوم التالي عندما مرّ بها الرسول الكريم ، كانت قد يَئِسَتْ من تكرار توسلها ، فلم تَقُمْ ولم تَقُلْ شيئًا .. وكان يسير خلف النبيّ رجل قد رأى وسمع ما حدث منها في اليومين السابقين ، فأشار إليها لتقوم وتكلم الرسول ، فتشجّعتْ وقامت إليه وقالت :

يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ منّ الله عليك .

فقال لها النبيّ : قد فَعَلْتُ .

فقالت : إني أريد أن أن ألحقَ بأهلي في بلاد الشام .

فقال : ولكن لا تعجلي بالخروج حتى تجدي مَنْ تثقين به من قومك ليوصِّلَكِ إلى بلاد الشام ، فإن وجَدْتِ مَنْ تثقين به فأعلميني .

ولما انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، سألَتْ أُختُ عديّ عن الرجل الذي أشار إليها لتكلم النبيّ ، فعرفتْ أنه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه .. وانتظرتْ حتى رأت ركبًا قد قَدِمَ ، ووجدتْ فيهم من تثق به ، فذهبتْ إلى النبيّ وقالت له : يا رسول الله ، جاءت جماعة من قومي ، ولي فيهم ثقة ، فأعطاها النبيّ كُسْوَةً ، وناقة لتحملها ، كما أعطاها ما يكفيها لنفقة الطريق ، فشكرتْهُ ، وذهبتْ مع الرّكب إلى بلاد الشام .

وبينما كان عديّ يجلس في أهله إذا به يبصر امرأة في هَوْدَجٍ " ما يوضع فوق الناقة لتركب فيه النساء " ، ورآها تتجه نحوهم ، فقام وسأل : ابنة حاتم ؟!.. وتبينها فإذا بها أخته .. ولما وقفتْ بادرتْ أخاها قائلة : القاطع الظالم .. لقد أخذتَ أهلك وولدك وتركتَ بقية والدك وعورتك .. وشعر عديّ بالخجل ، وقال لها : يا أختاه ، لا تقولي هذا ، بل قولي خيرًا ، فما قصدْتُ أن أتركك ، وظل يسترضيها حتى رضِيَتْ ، وحكتْ له ما حدث ، وما فعله معها محمد من إكرام .. فسألها عديّ عن رأيها في محمد فقالت : والله إني لأرى أن تلحقَ به سريعًا ، فإن كان نبيًّا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن مَلِكًا فلن تُذَلَّ عنده وأنت أنت .

فكّر عديّ فيما قالته أخته ، وقال في نفسه : وَلِمَ لا أذهب إلى محمد لأتحقق بنفسي من أمره وما يدعو إليه .. وشجّع عديًّا أنه سمع أن محمدًا قال : إني لأرجو الله أن يجعل يد عديّ في يدي ، فاتخذ عديّ قراره بالذهاب إلى المدينة للقاء محمد من غير أمان ولا كتاب .. ووصل عديّ إلى المدينة ، ودخل على الرسول الكريم وهو في المسجد ، فسلّم عليه فقال النبيّ : مَنْ الرجل ؟

فأجاب عديّ : عديّ بن حاتم .. فقام النبيّ إليه وأخذ بيده وذهب به إلى بيته .

ومما زاد دهشة عديّ أنه بينما كان يصحبه النبيّ إلى بيته ، لقيته امرأة ضعيفة في الطريق واستوقفته ، وكان معها صبيّ صغير ، وأخذتْ تكلمه في حاجة لها ، فظل معها حتى قضى لها حاجتها ، وكان عديّ يرقب ذلك ويقول في نفسه : والله ما هذا بِمَلِك .

ولما وصلا إلى البيت ، أخذ الرسول وسادة من الجلد وألقاها إلى عديّ وقال : اجلس على هذه .. ولكن الحياء منع الرجل من الجلوس عليها وقال : بل أنت تجلس عليها ، فقال النبيّ : بل أنت ... فأذعن عديّ وامتثل لطلبه وجلس عليها ، بينما جلس النبيّ صلىالله عليه وسلم على الأرض ، ونظر عديّ حوله لعله يبصر وسادة أخرى ، فلم يجد ، فعرف أنها الوسادة الوحيدة الموجودة بالبيت ، وأن الرسول قد آثره على نفسه ليجلس عليها .

التفت النبي إلى عديّ وقال : إيه يا عديّ بن حاتم ، ألم تكن ركوسيًا تدين بدين بين النصرانية والصائبة ؟ فقال عديّ : بَلَى .

فقال النبيّ : ألم تكن تسير في قومك بالمرباع " أي يأخذ الرُبع من غنائمهم " فتأخذ منهم ما لا يحلّ لك في دينك ؟

قال عديّ : بَلَى . .. وهنا أدرك عديّ أن محمدًا بحق نبيّ ومُرْسَلٌ .

ثم قال النبيّ : لعلك يا عديّ ، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما تراه من حاجة المسلمين وفقرهم ، فوالله ليوشِكَنَّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك يا عديّ ، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ، ما ترى من قلّة المسلمين وكثرة عدوّهم ، فوالله ليوشِكَنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف أحدًا إلاّ الله ..

ولعلك إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى أن الْمُلْكَ والسلطان في غير المسلمين ، وأيْمُ الله " تُقَالُ للقَسَم " ، ليوشِكَنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتِحَتْ عليهم ، وأن كنوز كِسْرَى بن هُرْمُز قد صارت إليهم .

وتَعَجَّبَ عديّ وقال : كنوز كسرى بن هرمز ؟!..

فقال النبيّ : نعم كنوز كسرى بن هرمز .. فما كان من عديّ إلاّ أن قال : أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله ، وأنك يا محمد رسول الله .

وعاش عديّ بعد إسلامه وكان من المعمَّرين ، وكان يقول : لقد تحققتْ اثنتان وبَقِيَتْ الثالثة ، وإنها والله لابدّ كائنة .. وقد حدث في عمره أن كانت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئًا حتى تبلغ المدينة ، وكان عديّ في أوّل جيش أغار على كنوز كسرى واستولى عليها .. وقال عديّ :

وأحلف بالله لتجيئنّ الثالثة التي يفيض فيها المال حتى لا يوجد من يأخذه .

ولقد تحقق قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وتحققتْ الثالثة في عهد الخليفة الزاهد العادل العابد " عمر بن عبد العزيز " حيث انتشر الخير وفاضت الأموال ، حتى أن الخليفة أمر أن يُنَادِي المنادي بين الناس على من يأخذ من مال الزكاة من فقراء المسلمين ، فلم يوجد أحد .

عِـــكْـــرِمَـــةُ بْـــنُ أَبِـــي جَـــهْـــلٍ

عندما جَهَرَ الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى التوحيد ، كان عكرمة في العَقْد الثالث من عمره ، وكان من أكرم أهل قريش حَسَبًا وأعزهم نَسَبًا وأكثرهم مالاً .

وقد كان أبوه " أبو جهل المَخزُومِيّ " سببًا في تأخر عكرمة عن الدخول في الإسلام ، فأبوه كان زعيم الشِّرْك الأكبر ، والذي كان يكيل العذاب للمؤمنين بدعوة النبيّ ، ويبطش بكل من يتبع الدين الجديد .. وكان عكرمة من أبرز فرسان قريش القلائل المعروفين بإقدامهم وشجاعتهم ومهارتهم .

ولقد أثَّرَتْ زعامة أبيه لقوى الشرك على وضع عكرمة الذي وجد نفسه مضطرًّا إلى معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم أشدّ العداوة ، وكان يفعل بالمسلمين ما يشرح به صدر أبيه من تعذيب وتنكيل واضطهاد .

وفي معركة بدر كان أبو جهل يقود المشركين ، وأقسم باللات والعُزّى " صنمان بمكة " ألاّ يعود إلى مكة إلاّ بعد أن يهزم محمدًا وأتباعه ، ونزل ببدر ، وأقام عليها ثلاثًا ينحر الذبائح ويشرب الخمور وتعزف له المعازف .

ولما بدأت المعركة كان عكرمة ، الذراع الأيمن لأبيه ، وخذل الله أبا جهل ، ولم يحقق له النصر على محمد ، ولم تنفعه اللات والعزى ، فوقع صريعًا ، ورآه ابنه عكرمة وهو يغرق في دمائه ، ثم يصير جثة هامدة لا حول له ولا قوّة ، وعجز عكرمة بسبب الهزيمة الساحقة عن أن يحمل جثة أبيه ليدفنها في بلده مكة التي كان سيّد قريش فيها ، فألقاها المسلمون في بئر" القَليب" مع جثث المشركين من قَتْلَى بدر ، وألقوا عليها الرمال .

بعد ذلك تضاعفت عداوة عكرمة للإسلام والمسلمين ، وبدأ مع بعض الرجال الذين قُتِلَ آباؤهم في بدر ، يوقِدُ نار العداوة والثأر في صدور المشركين ، ويحرّضهم على محمد وأتباعه ، حتى كانت موقعة أُحُد حيث خرج عكرمة بن أبي جهل ومعه زوجه " أم حكيم " التي كانت تقف وراء الصفوف مع نسوة قتلى المشركين الذين قُتِلُوا في بدر ، وكنَّ يضرِبْنَ معًا على الدفوف ويَهْتِفْنَ لتحريض المشركين على القتال ، وتشجيعًا لفرسانِهم .

وكان على ميمنة الفرسان " خالد بن الوليد " ، وعلى ميسرتِهم عكرمة ، وكان بلاء هذين الفارسين هو الذي حقق للمشركين النصر ، مما جعل أبا سفيان يقول متفاخرًا : هذا بيوم بدر .

وفي غزوة الخندق حاصر المشركون المدينة أيامًا طويلة، ولكن كاد صبر عكرمة ينفد ، وصدره يضيق بِهذا الحصار ، فنظر إلى مكان ضيِّق من الخندق ، واستطاع أن يجتازه بجواده ، فتبعه بعض أفراد المشركين ، وكانت مغامرة جريئة راح ضحيتها " عمرو بن عبد ود العامري " أما هو فقد لاذ بالفرار .

ويوم غزوة الفتح ، أدركتْ قريش أنّها لا تستطيع مجابَهةَ محمدٍ وأصحابِه ، فقرّرتْ أن تُخليَ له السبيل إلى مكة ، وقد شجّعهم على اتخاذ هذا القرار ما بلغهم من أن الرسول أَمَرَ قادة المسلمين ألاّ يقاتلوا إلاّ من قاتلهم من أهل مكة .. لكن عكرمة لم يقبل بِهذا الأمر ، ومعه نفر من المشركين ، فخرجوا على قرار قريش ، وحاولوا مقاومة جيش المسلمين ، ولكن خالد بن الوليد الذي كان في جيش المسلمين حينئذ ، استطاع أن يهزمهم ويقتل الكثيرين منهم ، مما اضطر الكثيرين من المشركين إلى الفرار .. وكان عكرمة ضمن الفارّين.. ووقعت مكة في أيدي المسلمين

وعفا الرسول صلى الله عليه وسلم عما بَدَرَ من قريش تجاهه من قبل ، ولكنه صلى الله عليه وسلم استثنى من هذا العفو البعض وأعلن أسماءهم وأمر بقتلهم أينما كانوا ، وكان في مقدّمتهم عكرمة بن أبي جهل ، الذي تسلّل متخفّيًا من مكة ، ومتجهًا إلى اليمن حيث لم يكن له بقاء في مكة .. وفي ذلك الوقت ذهبت أم حكيم " زوج عكرمة " ومعها " هند بنت عُتْبَة " إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، ومعهما عشر نسوة ليبايعن الرسول ، فدخلن عليه ، وتكلمتْ هند ، وكانت تضع النقاب على وجهها خجلاً من الرسول لأنها هي التي مثّلتْ بعمّه حمزة بن عبد المطلب في موقعة أُحُد ، وقالت هند : يا رسول الله ، ، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، وإني لأسألك أن تمسّني رَحِمُكَ بخير ، فإني امرأة مؤمنة مصدّقة ، ثم كشفتْ عن وجهها وقالت : هند بنت عُتْبَة يا رسول الله ، فقال لها النبيّ عليه الصلاة والسلام : مرحبًا بك .

فقالت : والله يا رسول الله ما كان على وجه الأرض بيت أحبّ إليّ أن يَذِلّ من بيتك ، ولقد أصبحتُ وما على وجه الأرض بيت أحبّ إليّ أن يعزّ من بيتك .

فقال النبيّ : وزيادة أيضًا .

ثم قامت " أم حكيم " زوج عكرمة بن أبي جهل فأسلمت وقالت : يا رسول الله ، قد هرب منك عكرمة إلى اليمن خوفًا من أن تقتله ، فأَمِّنْهُ أَمَّنَكَ الله ، فقال الرسول الكريم : هو آمِن .

فخرجت أم حكيم من وقتها في طلب عكرمة ، وكان معها غلام لها روميّ ، وبينما هما في الطريق راودها الغلام عن نفسه ، فجعلتْ تماطله وتُمَنّيه حتى قَدِمَتْ على جماعة من العرب ، فاستغاثت بهم ، فقاموا وأوثقوا الغلام وأبقوه عندهم . واستأنفتْ أم حكيم رحلتها حتى أدركتْ عكرمة عند ساحل البحر في منطقة " تِهَامَة " (السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر بينه وبين سلسلة جبال السراة)، وكان عكرمة يفاوض بحّارًا مسلمًا على نقله ، فقال له البحّار : أَخلِصْ حتى أنقلك .

فقال له عكرمة : وكيف أخلص ؟

فقال البحّار : تقول أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله .

فقال عكرمة : ما هربتُ إلاّ من هذا ، وبينما هما كذلك أقبلتْ أم حكيم على عكرمة وقالت له : يابن عم ، جئتُك من عند أفضل الناس ، وأبرّ الناس ، وخير الناس .. من عند محمد بن عبد الله .. وقد استأمنتُ لك منه فأمّنكَ فلا تُهْلِكْ نفسك .

فقال عكرمة : أنتِ كلّمته ؟

قالت : نعم ، أنا كلّمتُهُ فأمّنكَ ، وما زالت به تُطَمْئِنُهُ وتُقْنِعُهُ حتى عاد معها ، ثم حدّثته عما حدث من غلامها الروميّ ، فلما مرّ به عكرمة قتله .

وأثناء عودتهما إلى مكة ، وفي منزل نزلا به في الطريق ، أراد عكرمة أن يخلوَ بزوجه ، فرفضتْ وأبَتْ أشدّ الإباء وقالت : إني مسلمة وأنت مشرك .

فعجب أشدّ العجب وقال : إن أمرًا يحول دونك ودون الخلوة بي لأمر كبير !!..

ولما اقترب عكرمة من مكة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه ، فقال لهم : سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا ، فلا تسبُّوا أباه ، فإنّ سبّ الميّت يؤذي الحيّ ولا يبلغ الميّت .

ووصل عكرمة وزوجه أم حكيم إلى رسول الله ، فلما رآه النبيّ ، وثب إليه من غير عباءته فَرِحًا به .. ولما جلس النبيّ وقف عكرمة أمامه وقال : يا محمد ، إنّ أم حكيم أخبرتني أنك أمّنْتني ، فقال النبيّ : صَدَقَتْ ، فأنت آمِن .

فقال عكرمة : إلام تدعو يا محمد ؟

قال : أدعوك إلى أن تشهد ألاّ إله إلاّ الله وأني عبد الله ورسوله، وأن تقيم الصلاة وأن تؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت .

فقال عكرمة : والله ما دعوتَ إلاّ إلى حق ، وما أمرتَ إلاّ بخير ، ثم قال : قد كنتَ فينا والله قبل أن تدعو إلى ما دعوتَ إليه ، وأنت أصدقنا حديثًا وأبرُنا برًا .. ثم مدَّ يده وقال : أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله .. ثم قال : عَلِّمْني خير شيء أقوله .
فقال : تقول : أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدً رسول الله .
فقال عكرمة : ثم ماذا ؟

قال رسول الله : تقول : أُشْهِدُ الله ، وأُشْهِدُ مَنْ حضر أني مسلم مجاهد مهاجر .
فقال عكرمة ذلك .. عندئذ قال النبيّ : اليوم لا تسألُني شيئًا أعطيه أحدًا إلاّ أعطيتُك إيّاه .

فقال عكرمة : إني أسألُك أن تستغفرَ لي كل عداوة عاديتُكها ، أو مقام لقيتُك فيه ، أو كلام قلتُه في وجهك أو غَيْبَتِكَ .

فقال النبيّ : اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها ، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد به إطفاء نورك ، واغفر له ما نال من عِرْضي في وجهي أو أنا غائب عنه .. وهنا أضاء البشر وجه عكرمة وقال : أما والله ، لا أَدَعُ نفقة كنتُ أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلاّ أنفقتُ ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً قاتلتُه صدًا عن سبيل الله إلاّ قاتلتُ ضعفه في سبيل الله .

وبدأ عكرمة منذ ذلك اليوم عهدًا جديدًا ، حيث انضم إلى ساحة الدعوة كفارس من أعظم الفرسان بسالة في ميادين القتال ، كما أصبح عابدًا قائمًا وقارئًا لكتاب الله.. وكان يضع المصحف على وجهه ويقول : كتاب ربِّي ، كلام ربِّي ،، وهو يبكي من خشية الله !!..

واجتهد عكرمة أن يبرّ بعهده الذي قطعه للرسول .. ولذلك فما من معركة خاضها المسلمون بعد أن هداه الله للإسلام ، إلاّ واشترك فيها عكرمة .. وكان دائمًا

في مقدّمة المقاتلين ، وكان قتاله في معركة اليرموك نموذجًا فريدًا للمقاتل الذي يثأر من ماضي الشّرك ، ووفاء للعهد الذي قطعه على نفسه .

وفي أحد المواقف الصعبة التي اشتدّ الأمر فيها على المسلمين ، نزل عن جواده ، وكَسَرَ غِمْدَ سيفه ، ودخل بعيدًا في صفوف الروم كالأسد الغاضب ، فبادر إليه خالد بن الوليد وقال له : لا تفعل ذلك يا عكرمة ، فإنّ قَتْلَكَ سيكون شديد الأثر على المسلمين ، فقال عكرمة : إليك عني " أي اتركني " يا خالد ، فلقد كان لك مع رسول الله سابقة ، أما أنا وأبي فقد كنّا من أشدّ الناس على رسول الله ، فدعني أُكَفِّر عما سلف مني ، ثم قال : لقد قاتلتُ رسول الله في مواطن كثيرة ، وأَفِرُّ من الروم اليوم ؟!.. إنّ هذا لن يكون أبدًا ..

ثم نادَى في المسلمين : مَنْ يُبَايِعُ على الموت ؟ .. فبايعه عمّه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزْوَر في أربعمائة من المقاتلين المسلمين ، فقاتلوا دون فُسْطَاط خالد " وهو مقرّ قيادة الجيش " ودافعوا عنه بقتال شديد ، حتى عجز الأعداء عن اقتحام مقر قيادة خالد بن الوليد .

ولما انتهت معركة اليرموك التي تحقق فيها النصر لجيش المسلمين ، كان يرقد على أرض المعركة ثلاثة من أشجع الفرسان ، أرهقتهم جراحهم ، ونزفوا الكثير من دمائهم ، وهم : الحارث بن هشام ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل .

وطلب الحارث ماء ليشربه ، فلما جاءه الماء رأى عكرمة ينظر إليه فعرف أنه ظمآن ، فقال الحارث : ادفعوه إليه .. فلما قرّبوه منه نظر إليه عيّاش ، فقال عكرمة : ادفعوه إلى عيّاش .. فلما اقتربوا من عيّاش وجدوه قد أسلم الروح ، فلما عادوا بالماء إلى عكرمة وجدوه قد أسلم الروح ، فنظروا إلى الحارث فوجدوه قد لقي ربّه .

رضي الله عنهم جميعًا ، هؤلاء الأبطال الذين عرفوا الحق فاستمسكوا به ، وذاقوا حلاوة الإيمان ، فهانت عليهم أرواحهم في سبيل الله ، فكانوا حقًا من المتفوّقين في مدرسة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم !!..

مُـصْـعَـبُ بْنُ عُـمَـيْـر

عندما نتحدث عن مصعب بن عمير، فإننا نتحدث عن السفارة ومسئولياتها التي لا يعرفها إلاّ القليلون الذين يؤمنون برسالة السفارة وأمانتها .. وما أقلّهم في هذا الزمان !!.. لقد كان مصعب بن عمير أول سفير بعثه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب " المدينة المنوّرة " ليدعو إلى دين الله ، الإسلام .. وليت شباب هذا الزمان يقرأون عن مصعب بن عمير ، وكيف كان في شبابه !!.. ولو فعلوا لجعلوه قدوة طيبة يقتدي بها شباب هذه الأيام الذين اختلطت أمامهم الأمور ، فأصبحوا عن طريق الهداية تائهين ، وفي مسالك الضلالة غارقين ..

تعالوا معنا يا شباب .. لنتعرّف معًا على نموذج من أروع نماذج شباب الإسلام .. لقد كان مصعب بن عمير فخر شباب قريش ، وأكثرهم وفاء وفتوّة وبَهاء . ولقد وصفه المؤرخون بقولهم :" كان مصعب أعطر أهل مكة " فكان مولده في نعمة ويسر ، وتربّى في خير هذه النعمة حتى بلغ مبلغ الشباب .. ولقد كان مصعب يحظى بحب وتدليل كبير بين والديه ، كما كان حديث شباب مكة ، وعَلَمًا في ندواتهم ولقاءاتهم ونجمًا ساطعًا في مجالسهم ومحاوراتهم ، إن من تعايشوا مع مصعب الشاب المنعّم المدلّل الوجيه والوسيم لا يمكن أن يتصوّروا أن يتحوّل إلى واحدة من أساطير وقصص الإيمان والتضحية والفداء .. ولكنه أصبح فعلاً أسطورة لابد للشباب من كل عصر أن يعرفوها ويدركوا حقيقتها حتى تتغيّر لديهم المفاهيم ، وتُصَحَّحَ في عقولهم الأفكار .

إن هذا التحوّل الخطير في حياة مصعب بن عمير من الشاب المنعّم المدلّل إلى ذلك الشاب المؤمن المجاهد الفدائي ، يرجع إلى الصياغة الصحيحة التي يصوغها الإسلام لشبابه ، الذين ربّاهم المربّي والمعلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم .. لقد بدأ التغيير في حياة الفتى مصعب بن عمير عندما سمع ذات يوم ما يقوله أهل مكة عن محمد الأمين ودعوته الجديدة التي يقول فيها إن الله أرسله بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى عبادة الله الواحد

الأحد .. وكان هذا الأمر قد أصبح حديث أهل مكة ، في بيوتهم وندواتهم ، في صباحهم ومسائهم ، وكان مصعب ينصت إلى هذه الأحاديث التي بدأت تشغل باله .. فيتضاعف اهتمامه وإنصاته .. ورغم حداثة سنه في ذلك الوقت فقد كان حريصًا على المشاركة في تلك الندوات ، فقد كانت رجاحة عقله وأناقة مظهره تفتح له القلوب والآذان .. ومن خلال تلك الأحاديث التي كان يتناولها المتحدثون ، عرف مصعب أن محمدًا وأصحابه من أهل قريش يلتقون هناك على الصفا في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعيدًا عن أهل قريش ، وتجنبًا لأذاهم .. فلم يتردد مصعب ولم يُطِلْ الانتظار ، بل عزم وقرر أن يذهب بنفسه إلى دار بن أبي الأرقم ، وكان الرسول هناك مع أصحابه من المؤمنين بالرسالة الجديدة ، يتلو عليهم آيات القرآن ويؤمهم في صلاة لله الواحد الأحد.. ودخل مصعب دار الأرقم ، وجلس مع الجالسين ، واستمع إلى آيات الله تنساب على شفتي الرسول آخذة بالألباب والقلوب .. فإذا بآيات الله تشرح صدر وقلب مصعب ، ويجد فيها ضالّته وسعادته ، وكاد فؤاده يطير فرحة وسعادة بهذا الإيمان الذي ملك عليه مشاعره .. وإذا بالرسول الكريم يمدّ يده الشريفة بكل حُنُوٍّ حتى لامست صدر مصعب وفؤاده الذي ملأته السكينة ، وإذا بمصعب يعلن إسلامه وإيمانه .. وقد أمدّه الله سبحانه وتعالى بحكمة تفوق سنوات عمره ، وإيمان ثابت لا تزعزعه نوائب الأزمان والدهور .. ومع إيمان مصعب وإسلامه وانضمامه إلى أصحاب محمد ، فقد كان ولاؤه لأمّه مضرب الأمثال ، ولم يكن يخشى أو يخاف أحدًا على ظهر الأرض حين أسلم إلاّ خوفه من أمّه .. وقد كانت أمُّه " خُنَاسُ بنت مالك " ذات شخصية قوية يهابُها الكثيرون ويرهبونها .. وكان أهم ما يقلقه أن يقع في خصومة مع أمّه التي لا يطيق معها خصومة ولا يحتمل لها عقوقًا .. ولهذا قرر أن يكتم عنها نبأ إسلامه حتى لا يثير غضبها .. واستمر يتردد على دار الأرقم ويستمع إلى الرسول الكريم ، وهو سعيد بإيمانه .. ولكن كتمان إسلامه عن أمّه لم يدم طويلاً ، فقد رآه " عثمان بن طلحة " وهو يدخل دار الأرقم ، كما رآه وهو يصلّي كما يصلّي محمد ،

فأسرع عثمان بن طلحة إلى أم مصعب وأخبرها بإسلام مصعب .. وكاد هذا الخبر أن يذهب بعقلها .. ولما واجهته أمُّه لم يجد بدًا من مواجهة الأمر الواقع ، ووقف أمام أمّه وأهله وأشراف مكة وشبابها وشيوخها الذين اجتمعوا حوله يسمعون قوله .. ثم بدأ بيقين الحق وثباته يقرأ عليهم آيات القرآن الذي يُطَهِّرُ القلوب ويملؤها نورًا وحكمة.. وكاد الغضب يذهب بعقل أمّه ، فرفعت يدها لتصفعه بلطمة قوية ، ولكن الأمومة تحركت في نفس اللحظة فأرخت يدها ، وترنّحت الأم عندما رأت النور الذي يشعُّ من وجه مصعب والبهاء الذي يكسوه ..ورغم أن ضغط الأمومة قد منع أم مصعب من ضربه وإيذائه ، فقد رأت أن تثأر لآلهتها بأسلوب آخر .. فقررت حبسه في ركن من أركان دارها ، وظل مصعب حبيسًا حتى سمع أن بعض المؤمنين قد خرجوا مهاجرين إلى الحبشة ، فاستعمل الحيلة وغافل أمّه وهرب من محبسه، ثم ذهب مهاجرًا إلى أرض الحبشة مع إخوانه من المهاجرين .. وبعد فترة عاد مصعب إلى مكة ، ثم هاجر مرة أخرى إلى الحبشة مع بعض المهاجرين الذين أمرهم الرسول بالهجرة .

ولقد أعاد مصعب صياغة حياته على النموذج الإيماني الذي أعطاه لهم نبي الإسلام ، واعتبر مصعب أن حياته أصبحت جديرة بأن تكون قربانًا لخالقها .. وكان يمارس تجربة إيمانه بكل تفوّق وثبات في كل مكان ، فلم يعد مصعب ذلك الشاب المنعّم والمدلّل ، صاحب الثياب الأنيقة ، بل أصبح بسيطًا في ملبسه ، متواضعًا في مظهره ، حتى أنه خرج يومًا على المؤمنين الذين كانوا حول الرسول ، فما أن رأوه حتى حنوا رءوسهم ونظروا إلى الأرض وامتلأت أعينهم بالدموع .. وتذكّروا ما كان عليه مصعب قبل ذلك من فاخر الثياب وأزهر العطور ، بينما يرونه اليوم يرتدي جلبابًا باليًا مليئًا بالرقع .. عندئذ تألّقت ابتسامة جليلة على وجه الرسول ثم قال : " لقد رأيتُ مصعبًا هذا ، وما بمكة فتىً أنعمُ عند أبويه منه ، لقد ترك ذلك كله حُبًا لله ورسوله " .

وعندما يئست أمُّه من عودته إلى دين آبائه وتَرْكِهِ دين محمد ، منعته وحرمته من كل ما كان يستمتع به من نعمة ، وفي آخر عهدها به حاولت أن تحبسه مرة أخرى

بعد عودته من الحبشة ، ولكنه أعلن أنها لو فعلت ذلك لَيَقْتُلنّ كل من يشارك في حبسه ، وهي تعرف جيدًا صدق عزمه إذا عزم .. فاضطرت أن تودِّعه والدموع في عينيها وعينيه ، وقالت له بإصرار على كفرها : اذهب لشأنك ، لم أعد لك أمًّا ، فاقترب منها وبإصرار على الإيمان وقال لها : " يا أمَّه ، إني لكِ ناصح ، وعليكِ شفوق ، فاشهدي ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله " .. فأجابته بغضب : " قسمًا بالثواقب ، لا أدخل في دينك ؛ فَيُزْرَى برأيي ويضعف عقلي " .. وهكذا ترك مصعب النعمة التي كان يعيش فيها ، وآثر حياة الشظف والفقر ، وهجر التأنق والتعطّر ، ورضي بأخشن الثياب ، كما كان يأكل يومًا ويجوع أيامًا ، وكان تأنقه بسموّ العقيدة وتعطّره بنور الإيمان ، وتعلّقه بحب الله ورسوله قد حوّله إلى إنسان ينظر إليه الآخرون نظرة إجلال واحترام .

وقرر الرسول الكريم أن يختار " مصعب بن عمير " لمهمة عظيمة في وقتها .. أن يكون سفيره إلى يثرب " المدينة " وأن تكون مهمته تفقيه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول عند العقبة ، وأن يدعو غيرهم إلى دين الله ، وأن يُعدَّ المدينة ليوم الهجرة المنتظر .. لم يختر الرسول سفيرًا له إلى المدينة من أصحابه ممن هم أكبر سنًّا وأكثر جاهًا وأقرب من الرسول قرابة .. ولكنه اختار " مصعب بن عمير " أو " مصعب الخير " كما سمّاه الرسول .. وهو يعلم أنه يوليه أهم القضايا في ذلك الوقت ، وهي نشر الإسلام في المدينة ، وإعدادها لتكون دار الهجرة ، ومركز الدعوة والجهاد .. وحمل مصعب الأمانة ، وأعانه الله بما أنعم عليه من رجاحة العقل ودماثة الخُلُق ، واستطاع مصعب بحكمته وحسن خُلُقه وزهده وتواضعه أن يسكن قلوب أهل المدينة ، مما دفعهم إلى الدخول في دين الله .. وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة ، أرسل مسلمو المدينة إلى مكة وفدًا ينوب عنهم للقاء الرسول .. وكان هذا الوفد مكوّنًا من سبعين من المؤمنين والمؤمنات ، يقودهم مُعَلّمُهُم ورسول نبيهم " مصعب بن عمير " .. لقد عرف مصعب رسالته التي كلّفه بِها الرسول الكريم ، وهي الدعوة إلى الله ، فأدّاها

على أكمل وجه .. وكان في المدينة مع " أسعد بن زرارة " الذي أكرم ضيافته ، يزوران القبائل والمجالس ، ويقرأ على الناس ما حفظه من آيات القرآن الكريم ، ويدعو إلى عبادة الله وحده .. وقد ساعده ذكاؤه وحلمه أن يتجنّب الأذى ، وأن يكسب قلوب المعارضين .. ولقد تجلّى ذلك عندما كان يَعِظُ الناس ذات يوم ، ثم فوجئ بسيِّد بني عبد الأشهل بالمدينة وهو" أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر" الذي جاء وهو يُشْهِرُ حربته ويمتلئ غضبًا وغيظًا من مصعب الذي يفتن القوم عن دينهم ، ويتحدث عن إله واحد لم يسمعوا عنه من قبل ، ويدعوهم إلى تَرْكِ دينهم وهجر آلهتهم .. وعندما رأى المسلمون المجالسون لمصعب " أسيد بن حضير " قادمًا وغاضبًا ، ملأهم الرعب والخوف ، أما مصعب فظل ثابتًا على هدوئه .. ووجّه " أسيد بن حضير " إلى مصعب وأسعد بن زرارة الحديث قائلاً : " ماذا جاء بكما إلى حيِّنا ، تسفِّهان ضعفاءنا ؟ .. اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة " .. وبكل هدوء وثبات بادر مصعب بالحديث الحسن فقال لأسيد : " أولاً تجلس فتستمع .. فإن رَضِيتَ أَمْرَنا قَبِلْتَهُ ، وإن كَرِهْتَهُ كففنا عنك ما تكره " .. كان في حديثه استجابة لدعوة الله في حسن المجادلة التي تأسر القلوب .. وكان " أسيد " رجلاً عاقلاً ، وقد أقنعه مصعب بالاحتكام إلى ضميره .. فأجابه " أسيد " قائلاً : أنصفتَ .. ووضع حربته وجلس يستمع .. وقرأ مصعب بعض آيات الله ، وبدأ يُفَسِّرُ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .. وإذا بوجه " أسيد " يشرق بالنور .. وما كاد مصعب ينتهي من حديثه حتى صاح " أسيد " قائلاً : ما أحسنَ هذا القول وأصدقَه !!.. ثم قال : كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين ؟.. وأجاب المؤمنون الحاضرون بالتكبير والتهليل ، وصاحوا صيحة رجّت الأرض رجًّا : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال له مصعب : " طَهِّرْ ثوبك وبدنك ، واشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله ".. فقام " أسيد " وذهب وغاب قليلاً ثم عاد إليهم والماء الطهور يقطر من شعر رأسه ، ثم وقف أمامهم يعلن في ثبات ويقين أنه يشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله .. وانتشر الخبر كضوء الشمس .. وجاء "

سعد بن معاذ " ليستمع إلى ما يقوله مصعب فاقتنع وأعلن إسلامه . ثم جاء " سعد بن عبادة " وهداه الله إلى الإسلام .. وكان إسلام هؤلاء الثلاثة نعمة أنعم الله بها على أهل المدينة الذين أقبلوا على بعضهم ويقولون : إذا كان " أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة " قد أسلموا ، فلماذا نتخلف نحن ؟ فلنذهب إلى مصعب لنستمع إليه ونؤمن بين يديه ، فإن الثلاثة يتحدثون أن الحق ينطق من بين ثناياه .. وذهب أهل المدينة إلى مصعب يعلنون إسلامهم .. وبذلك نجح أول سفير لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وتفور قريش بغيظها وحقدها ، وتُعِدُّ عدَّتها لمطاردة عباد الله المؤمنين ، وتبدأ غزوة " بدر " التي نصر الله فيها المؤمنين ، وكان النصر قاسيًا لقريش وأذهب عقولهم وحطم أحلامهم .. وبدأوا يسعون سعيًا حثيثًا إلى الثأر لما نالهم من هزيمة .. وجاءت غزوة " أُحُد ".. ويستعد المسلمون للمعركة .. ويقف الرسول وسط الصفوف يتفرّس الوجوه المؤمنة ، ليختار منها من يحمل راية الإسلام .. وعندما يبصر " مصعب الخير " يدعوه فيتقدّم ويحمل اللواء .. ونشبت المعركة واحتدم القتال .. ولحكمة يعلمها المولى عز وجل ، حدث أن خالف الرماة أمر الرسول ، وغادروا مواقعهم في أعلى الجبل ، بعد أن رأوا المشركين ينسحبون .. ولم يدركوا أن هذه المخالفة ستحوّل نصرهم إلى هزيمة .. وفوجئ المسلمون بفرسان قريش تنقض عليهم من أعلى الجبل ، وأطلقوا لسيوفهم ورماحهم العنان ، فقتلوا الكثيرين .. ولما رأى المشركون الذعر والفوضى يمزّقان صفوف المسلمين ، قرروا أن يركّزوا هجومهم على رسول الله ليقتلوه .. وأدرك مصعب الخطر الذي يتعرّض له الرسول ، فأراد أن يحوّل اهتمام المشركين ويشغلهم عن النبي ، فرفع الراية عاليًا ، وراح يكبّر كزئير الأسد ويُعْلِي صوته ، وراح يصول ويجول ، ويضرب هنا وهناك ، ويزأر صائحًا : الله أكبر الله أكبر .. وكان يقاتل وحده ، وكأنه جيش بأسره .. كانت يمناه تضرب بالسيف في عنف وقوة ، بينما كانت يسراه تحمل الراية في استماتة وثبات .. ولما ضاق المشركون ببسالة مصعب

وشجاعته ، وأنه بفدائيته يحول بينهم وبين محمد ، تكاثروا عليه لإزاحته من طريقهم ..
ويقول " ابن سعد" في وصف هذا الموقف الصعب : أخبرنا ابراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري ، عن أبيه قال : " حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد ، فلما جال المسلمون ، ثبت به مصعب ، فأقبل بن قميئة وهو من فرسان قريش ، فضرب مصعب على يده اليمنى فقطعها ، ويصيح مصعب قائلاً : وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه ، فضرب بن قميئة مصعب على يده اليسرى فقطعها ، فحنا مصعب على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل .. ثم حمل عليه بن قميئة الثالثة بالرمح فأنفذه ، واندق الرمح ، ووقع مصعب ، وسقط اللواء " . ووقع البطل ، رمز الفداء ، وكوكب الشهداء .. وكان ما يملأ ظنه أنه إذا سقط فسيصبح طريق القتلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاليًا من المدافعين والحماة ، فكان يُعَزِّي نفسه في رسول الله من شدة حبه له وخوفه عليه ، فمضي يقول مع كل ضربة سيف تقطع منه ذراعًا:[وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ] • ١٤٤ آل عمران "..
وكأن الله تعالى قد أكرم قدره فنزل الوحي بعد ذلك يرددها ، وأصبحت مقولة مصعب آية من آيات القرآن أنزلها الله على رسوله .. وبعد انتهاء المعركة القاسية وجد المسلمون جثمان الشهيد البطل راقدًا على الأرض ، وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المختلط بدمائه الزكية .. وكأنما تعمّد مصعب قبل أن يلفظ أنفاسه أن يُخْفِيَ وجهه في التراب حتى لا يبصر وهو جثة هامدة رسول الله وقد أصابه أي سوء ، أو كأنه أخفى وجهه في التراب خجلاً من سقوطه شهيدًا قبل أن يطمئن على نجاة رسول الله ، وقبل أن يستمر إلى نهاية المعركة في حماية الرسول والدفاع عنه .

رضي الله عنك يا مصعب الخير .. أإلى هذا الحد بلغ حبُّك لرسول الله ؟!.. وجاء الرسول وأصحابه يتفقدون أرض المعركة ، ويودّعون شهداءها .. وأمام جثمان مصعب سالت الدموع غزيرة غزيرة ، ولم يستطع أصحابُها أن يوقفوها ..

ويقول " خَبَّابُ بن الأرت " : " هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله ، نبتغي وجه الله ، فوجب أجرنا على الله .. فمنا من مضى ، ولم يأكل من أجره في دنياه شيئًا — منهم مصعب بن عمير — قُتِلَ يوم أُحُد ، فلم يوجد له شيء يُكَفَّنُ فيه إلاّ نَمِرَة .. فكنا إذا وضعناها على رأسه تعرّت رِجْلاه ، وإذا وضعناها على رِجْلَيْهِ برزت رأسه .. فقال لنا الرسول : "اجعلوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر " .. وعلى الرغم من الحزن العميق الذي كان يعانيه الرسول لقتل عمه حمزة ، وتمثيل المشركين بجثمانه تمثيلاً أفاض دموع رسول الله وأوجع فؤاده .. ورغم امتلاء أرض المعركة بجثث أصحابه وأصدقائه الذين يمثّلون عالَمًا من الصدق والطهر والنور .. رغم كل هذا الحزن والألم ، وقف الرسول أمام جثمان مصعب الخير ، أول سفرائه إلى المدينة، يودّعه وينعاه ، وقال: [مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ] " ٢٣ الأحزاب " ، ثم نظر في حزن وأسى على بُرْدَتِهِ التي كُفِّنَ فيها وقال :" لقد رأيتُك بمكة ، وما بِها أرقَّ حُلَّةً منك ، ولا أحسن لِمَّةً منك ، ثم هاأنت ، شَعِثُ الرأس في بردة " !!..ووقف الرسول عليه الصلاة والسلام ينظر إلى أرض المعركة بكل من عليها من رفاق مصعب ، ثم هتف قائلاً : " إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة " ، ثم أقبل على أصحابه الأحياء وقال : (أيها الناس ، زُورُوهُم ، وَأْتُوهُم ، وَسَلِّمُوا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ، لا يُسَلِّمُ عليهم مُسَلِّمٌ إلى يوم القيامة ، إلاّ رَدُّوا عليه السلام) !!..

لك الله يامصعب .. ما أعظمك وأنت تحمل اللواء .. وما أعظمك وأنت تضمّه بعضديك إلى صدرك بعد أن قُطِعَت ذراعاك .. ما أعظمك وأنت تستميت في الدفاع عن النبي .. ما أعظمك وأنت تقع شهيدًا وأنت تحتضن اللواء .. ما أعظمك وأنت تُخفِي وجهك في التراب خوفًا من أن تبصر وأنت جثة هامدة رسول الله وقد أصابه سوء .. ما أعظمك وأنت تدس وجهك في التراب خجلاً من أنك لم تستطع أن تستمر إلى آخر المعركة دفاعًا عن حبيبك الرسول !!.. رضي الله عنك يامصعب الخير .. أإِلى هذا الحد بلغ إيمانك بالله وحبُّك لرسوله ؟؟!!..

لك الله يا مصعب .. وعليك وعلى سائر الشهداء سلام الله ورحمته وبركاته !!..

عَـبْـدُ اللـّـهِ بْـنُ أُمّ مَـكْـتُـومٍ

أبوه " فقيس بن زائد " ، وأمّه " عاتكة بنت عبد الله " .. وقد دُعِيَتْ بأم مكتوم لأنها ولدته أعميً مكتومًا ، ولهذا سُمِّيَ " عبد الله بن أم مكتوم " .

وكان عبد الله تربطه بالنبيّ صلى الله عليه وسلم صلة رَحِم ، فقد كان بن خال أم المؤمنين "خديجة بنت خُوَيْلد" رضي الله عنها ، وهو مَكّيٌّ قُرَشِيٌّ .. وكان عبد الله من السابقين إلى الإسلام عندما بدأت الدّعوة إليه في مكّة ، وقد عانى من أذى قريش ما عاناه غيره من المسلمين الأوائل ، ونال من البطش والقسوة الكثير فما ضعف ولا تزعزع إيمانه ولا تأثّر حماسه ، وإنما زادته المعاناة تمسّكًا بدين الله ، وتعلّقًا بكتاب الله ، وتفقهًا في شرع الله ، وحبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنه كان حريصًا على حفظ القرآن الكريم ، وعلى مجالسة النبيّ الكريم في كل مجالسه ، وعلى دوام محادثته ، .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة شديد الحرص على إسلام سادات قريش ، فكان يتصدّى لهم ويناقشهم في أمر الإسلام .

وذات يوم التقى الرسول الكريم بعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وأخيه شَيْبَة بن رَبِيعَة ، وعمرو بن هشام الْمُكَنّى بأبي جهل ، وأُمَيّةَ بْنْ خَلَف ، والوليد بن الْمُغيرَة " والد خالد بن الوليد" .. وكان النبيّ يتفاوض معهم ويناجيهم ، ويحثهم على الإسلام ، وكان يطمع في أن يستجيبوا لدعوته ، أو يَكُفُّوا أذاهم عن أصحابه .

وبينما كان الرسول الكريم يتفاوض معهم جاءه عبد الله بن أم مكتوم يستقرئه آية من كتاب الله ويقول : يا رسول الله ، علّمني مما علّمَكَ الله .. ونظرًا لأن الرسول الكريم كان منشغلاً بمفاوضة سادة قريش ، فقد أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم ، وعَبَسَ في وجهه ، وتولّى نحو أولئك السادة من قريش ، لعلهم يُسْلِمُون !!..

وبعد أن قضى الرسول الكريم حديثه مع سادات قريش ، وهَمّ أن يعود إلى أهله ، إذا بالوحي ينزل عليه بقوله تعالى : [عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَة، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ] "١-١٦ عبس" .

هذه الست عشرة آية التي نزلت على قلب الرسول الكريم ، كانت بمثابة عتاب من الله سبحانه وتعالى ، في شأن عبد الله بن أمّ مكتوم .. ومنذ ذلك اليوم ، أصبح النبيّ الكريم يهتم بأمر عبد الله ، ويُكْرِمُ مثواه إذا نزل ، ويُقَرِّبُ مجلسه إذا جاء ، ويسأله عن حاجته ويقضيها له .. وكان يُرَحِّبُ به كلما لَقِيَهُ ويقول له : (أهلاً بمن عاتبني فيه ربِّي) !!..

ولما اشتدّت قريش في إيذائها للمسلمين وللرسول ، أَذِنَ الله تعالى لهم بالهجرة ، فكان عبد الله بن أم مكتوم أسرعهم إلى الهجرة ، وكان هو ومصعب بن عمير أوّل من هاجر إلى المدينة من المسلمين ، واستقرّ عبد الله بن أم مكتوم هو وصاحبه مصعب بن عمير في المدينة يدعوان إلى الإسلام ، ويعلّمان المسلمين أمور دينهم ويُقْرِئانِهم القرآن.

ولما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، اتخذ عبد الله بن أم مكتوم ، وبلال بن رَبَاح مُؤَذِّنَيْنِ للصلاة .. فكان بلال يؤذن ، وابن أم مكتوم يقيم الصلاة ، وأحيانًا يؤذن بن أم مكتوم ، ويقيم بلال الصلاة .. وفي شهر رمضان كان بلال يؤذن بليل ليوقظ الناس لتناول السحور ، وكان عبد الله بن أم مكتوم يؤذن لصلاة الفجر .

ومن إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أم مكتوم أنه استخلفه على المدينة بضع عشرة مرّة ، منها يوم غادرها لفتح مكة .. وعندما أنزل الله على رسوله من الآيات ما يرفع شأن المجاهدين ويفضّلهم على القاعدين في قوله تعالى :[لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] تأثر عبد الله ، وعَزّ عليه أن يُحْرَمَ من فضل الجهاد ، فقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجَاهَدْتُ ، ثم راح يسأل الله تعالى بقلب خاشع ، أن يُنَزِّلَ قرآنًا في شأنه وشأن أمثاله ممن تمنعهم عاهاتُهم عن الجهاد ، وظلّ يدعو الله في توسُّل ، والدموع تسيل من عينيه ويقول : اللهمّ أَنزِلْ عُذْرِي ، اللهمّ أنزل عذري .. فاستجاب الله لدعائه ، وأنزل قوله تعالى : [غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ] ، فنزل الاستثناء الذي تمنّاه بن أمّ مكتوم ، وأصبحت الآية كما يلي : [لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] ٩٥ النساء .

ولأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلاّ بكبار الأمور ، فقد أبت نفس عبد الله بن أم مكتوم أن تقعد مع القاعدين ، رغم أن الله أعفاه وأمثاله من الجهاد ، فقد عقد العزم على الجهاد في سبيل الله .. فحرص على ألاّ تفوته غزوة من الغزوات ، وطلب أن يوقفوه بين الصّفين من الجيش ، وقال لهم : أقيموني بين الصّفين ، وحمّلوني اللواء " الراية " ، أحمله لكم وأحفظه ، فأنا أعمى لا أستطيع الفرار .

وعندما أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يخوض المعركة مع الفُرْسِ لِيُزِيلَ دولتهم ومُلْكَهُم ، وكان ذلك في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، كتب إلى عمّاله يقول:

لا تَدَعُوا أحدًا له سلاح أو فَرَسٌ أو نجدة أو رأي إلاّ وجّهتموه إليّ، والْعَجَلَ الْعَجَلَ !!..

وأقبل المسلمون في جموع على المدينة من كل مكان يُلَبُّونَ دعوة الفاروق عمر للجهاد ، وكان بين هؤلاء المجاهدين عبد الله بن أم مكتوم .

وجعل عمر بن الخطاب أميرًا على الجيش هو " سعد بن أبي وقّاص " .. ولما وصل الجيش إلى القادسية ، برز عبد الله بن أم مكتوم ، وهو لابس دِرْعَهُ ومستكمل عُدَّتَهُ ، وحمل راية المسلمين ليحافظ عليها أو يموت دونها !!..

وفي أيام ثلاثة قاسية تحارب الجيشان ، وكانت حربًا ضروسًا لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلاً .. وما أن انتهى اليوم الثالث إلاّ وقد حقق الله تعالى النصر للمسلمين .. وانتهت دولة من أعظم الدول ، هي دولة الفُرْسِ ، وهُدِمَ عَرْشٌ من أعرق العروش ، وهو عرش كِسْرَى ، ورُفِعَتْ راية التوحيد .

وقد استُشْهِدَ في هذه المعركة مئات من الشهداء .. وكان عبد الله بن أم مكتوم واحدًا من هؤلاء الشهداء ، وكان يرقد على أرض المعركة صريعًا مُضَرَّجًا بدمائه ، وهو يعانق راية المسلمين بين ذراعيه !!..

رضي الله عنك يا عبد الله ، فقد أبت نفسك إلاّ أن تكون من الشهداء المجاهدين !!..

أبو ذرّ الغفاريّ

اسمه " جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَة " المُكَنّى بأبي ذر الغفاري ، وكان من قبيلة تُسَمَّى " غِفَارْ " .. وكانت هذه القبيلة تقيم في وادي " وَدَّانْ " الذي كان يصل مكة بالعالم الخارجي ، ولهذا سُمِّيَ " أَبُو ذَرِّ الْغِفَارِيُّ " نسبةً إلى قبيلته .

وكانت هذه القبيلة تعتمد في معيشتها على ما تبذله لها القوافل التي تمر بها حاملة تجارة قريش ومتوجّهة إلى بلاد الشام أو عائدة منها .. كما كانت هذه القبيلة أحيانًا ما تقطع الطريق على بعض القوافل التي لا تعطيها ما يُرْضِي حاجتها .. وكان أبو ذر واحدًا من أبرز أبناء قبيلته ، إذ كان معروفًا بشجاعته وجرأته وذكائه وصواب رأيه .

وكان بإحساسه الفطري ، وذكائه ورجاحة عقله ، يشعر بأشدّ الضّيق إزاء تلك الأصنام التي كان يعبدها أهل قبيلته ، وغيرهم من قبائل العرب ، وكان يستنكر معتقدات العرب في عبادتهم لتلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر .. وكان في قرارة نفسه يتمنّى أن يظهر نبيّ جديد يقضي على هذه التفاهات ، وينير العقول والقلوب .

وعندما بلغه نبأ ظهور نبيّ جديد في مكة ، قال لأخيه أنيس : (الطَلَقْ — لا أبا لك — " وهي كلمة تُقَالُ في المدح والذمّ ، والمراد بها هنا المدح " إلى مكة ، وتحقق من أخبار ذلك الرجل الذي يقول إنه نبيّ ، واسمع شيئًا مما يقوله ، ووافِني به) .

وذهب أنيس والتقى بمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة ، وسمع بعض ما يقوله ، ثم عاد إلى أبي ذر الذي كان يتلهّف على سماع حقيقة أمر النبيّ الجديد .. وقال أنيس لأخيه : لقد رأيتُ — والله — رجلاً يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويقول كلامًا ما هو

بالشّعر .. فقال أبو ذر : وماذا يقول الناس فيه ؟ .. فقال أنيس : يقولون إنه شاعر ، أو ساحر أو كاهن .

فقال أبو ذر : والله ما رَوَيْتَ لي ظمأ ، ولا قضيتَ لي حاجة ، فَتَكَفَّلْ انت بعيالي حتى أذهب بنفسي فأنظر في أمر ذلك الرجل .

فقال أنيس : لا بأس ، ولكن أرجو أن تكون على حذر من أهل مكة .

اتجه أبو ذر إلى مكة بعد أن حمل قِرْبَةَ ماء وبعض الزاد للطريق ، وكان قد سمع بأن أهل مكة في أشدّ الغضب مما يقوله محمد عن آلهتهم ، وأنهم كانوا يبطشون بكل من يتبع هذا الدين الجديد، ولهذا دخل أبو ذر مكة متنكّرًا وكأنه واحد من الذين يأتون إليها ليطّوّفوا بها ، أو كأنه عابر سبيل يستريح ويتزوّد ليستأنف الطريق ، لأنه يعلم أن أهل قريش لو علموا غايته ربما قتلوه أو آذَوْهُ .. ولم يكن يقلق على حياته إلاّ ليتمكّن من مقابلة الرجل الذي يريد أن يقف على حقيقة نبوّته وليؤمن بدعوته إن اقتنع بِها ، وليكن بعد ذلك ما يكون .. وظل في مكة دون أن يسأل أحدًا عن محمد ، لأنه لم يكن يدري أيكون من يسأله من أتباع محمد أم من أعدائه .. وكان كلما سمع بعض الناس يتحدّثون عن محمد ، اقترب منهم في حذر حتى يجمع بعض المعلومات التي تدلّه على محمد ، أو المكان الذي يمكن أن يراه فيه .

وكان عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه يمرُّ بالمسجد وقد اقترب الليل ، فوجد أبا ذر مضطجعًا في المسجد ، ولما نظر إليه عرف أنه غريب ، فقال له : هَلُمَّ إلينا أيها الرجل ، فأنت ضيفنا ، وأخذه معه حيث قضى الليلة عنده .

ولما أقبل الصباح حمل أبو ذر زاده وقربته وخرج مع عليّ وذهب إلى المسجد دون أن يسأل أحدهما صاحبه عن شيء .

وقضى أبوذر اليوم الثاني وهو يتطلّع إلى الرّائح والغادي ، لعلّه يسمع شيئًا عن محمد أو يتعرّف عليه دون جدوى .. فلما أقبل المساء ، اضطجع في المسجد ، فمرَّ به عليّ رضي الله عنه وكرَّم وجهه وقال له : أما آن للرجل أن يعرف منزله ؟!.. ثم اصطحبه معه فقضى الليلة الثانية عنده ، ودون أن يسأل أحدهما صاحبه عن شيء !!..

وكما حدث في اليومين ، حدث نفس الشيء في اليوم الثالث ، إذ استضاف عليٌّ كرَّم الله وجهه ، أبا ذر .. وفي هذه الليلة الثالثة قال له عليّ : ألا تُحَدِّثُني عما جاء بك إلى مكة ؟!..

فقال أبو ذر: إن أعطيتني عهدًا أن ترشدني إلى ما أريد ، حَدَّثْتُكَ بما جاء بي إلى مكة .. فعاهده عليٌّ على ما أراد .. وهنا قال أبو ذر : لقد جئتُ إلى مكة أبتغي لقاء النبيّ الجديد ، لأسمع شيئًا مما يقوله .. عندئذ بدا السرور على وجه عليّ كرَّم الله وجهه وقال : والله ، إنه لرسولٌ حقًا .. وجعل يحكي عن النبيّ وعن الدعوة الجديدة التي تدعو الناس لعبادة الله وحده ، وقال له عليّ : إذا أقبل الصباح ، اتبعني حيثما توجّهتُ ، وراقبني ، فإن وجدتُ شيئًا أخشى عليك منه وَقَفْتُ كأني أُرِيقُ الماء ، أما إن مضيتُ فاتبعني ، حتى إذا رأيتني أدخل مدخلاً ، فادخل ورائي .

ولما أقبل الصباح ، انطلق عليّ ووراءه أبو ذر ، حتى دخلا بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .. وما أن رأى أبو ذر الرسولَ حتى قال : السلام عليك يا رسول الله .
فقال الرسول : وعليك سلام الله ورحمته وبركاته .

ويُعْتَبَرُ أبو ذر أول من حيّا الرسول بتحية الإسلام ، حتى قبل أن يسمع منه ما جاء ليسمعه .

عندئذ أَسْمَعَ الرسولُ أبا ذر بعض آيات القرآن الكريم التي شرحت صدر أبي ذر، ودعاه الرسول الكريم إلى الإسلام فإذا به يهتف قائلاً : أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا

رسول الله ، وقبل أن يترك أبو ذر مكانه أعلن كلمة التوحيد .. وبذلك يُعْتَبَرُ أبو ذر رابع أو خامس من أسلم!!..

وسأله النبيّ : مِمَّنْ أنت يا أخا العرب ؟

فأجابه أبو ذر : من غِفَار .

وهنا تألّقت ابتسامة كبيرة على وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودُهِشَ وتَعَجَّبَ ، ثم قال : (إن الله يهدي من يشاء) !!.. وضحك أبو ذر أيضًا ، لأنه عرف سبب الدهشة التي ظهرت على وجه الرسول الكريم عندما علم أن أنه من غفار ، تلك القبيلة التي لها شأن خطير في قطع الطرق على القوافل التي تعبر بالقرب منها ، فكيف يأتي منها رجل إلى مكة ليعلن إسلامه ؟!

بعد أن أعلن أبو ذر إسلامه ، أقام مع الرسول في مكة فترة تعلّم فيها الكثير عن الإسلام ، وقرأ كثيرًا من القرآن .. وذات يوم قال للنبيّ الكريم : يا رسول الله ، بأيّ شيء تأمرني ؟ فقال له النبيّ : ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري ، ولا تُخْبِرْ أحدًا في مكة بإسلامك ، فإني أخاف أن يقتلوك.. فقال أبو ذر : والذي نفسي بيده ، لا أبرحُ مكة حتى آتيَ المسجد ، وأصرخ بدعوة الحق بين ظَهْرَانَيْ قريش " أي في وسط قريش" فسكت الرسول !!..

وجاء أبو ذر إلى المجد ، ووقف بين أهل قريش ، ونادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، إني أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله .. وكانت هذه الصيحة تعتبر تحدّياً لكبرياء قريش ، صاح بها رجل غريب ليس له في مكة حِمَىً .

وما أن سمع القوم ذلك حتى انتابهم الذُّعر ، وقاموا إليه ، وانقضُّوا عليه يضربونه بوحشيّة حتى كاد يموت ، إلاّ أن العبّاس بن عبد المطلب " عم النبيّ " قد انحنى على أبي

ذر ليحميه منهم ، وقال لهم : وَيْلَكُمْ !!.. أتقتلون رجلاً من غفار ؟!.. وقوافلكم تمر عليهم ، إن يُحَرِّضْ قومه يقطعوا على قوافلكم الطريق ، فكفوا عنه واتركوه ، فثابوا إلى رشدهم وتركوه .

ولكن أبا ذر وقد هداه الله إلى الإسلام ، وقد تذوّق حلاوة الإيمان في تحمُّل الأذى في سبيل الله ، كان لا يريد أن يغادر مكة حتى يزداد من المعرفة والتعمّق في فهم الإسلام ، وحتى يستمتع بصحبة الرسول الكريم .. وحدث أن رأى امرأتين تطوفان بالصنمين " أُسَافَ ، ونائِلَة " تتحنيان أمامهما وتضرعان وتدعوانهما .. فما أن رأى أبو ذر ذلك حتى وقف أمام المرأتين يُسَفِّهُ الصّنمين وبطريقة مهينة ، فصرخت المرأتان ، فإذا المشركون يأتون مهرولين وينقضُّون على أبي ذر ويضربونه حتى يُغْشَى عليه ، وبعد أن يفيق ، يقول أيضًا وبأعلى صوته : أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله.

ولما رأى النبيّ ما أَلَمَّ بأبي ذر ، أدرك طبيعته الإيمانية وقدرته على مواجهة الباطل ، ولكن الرسول الكريم رأى أن الوقت لم يَحُنْ بعد لهذه المواجهة ، فقال له : أَلَمْ أَنْهَكَ عن إعلان إسلامك ؟!.. فقال أبو ذر : يا رسول الله ، كانت حاجة في نفسي فقضيتُها.

فقال النبيّ : الآن الْحَقْ بقومك وأخبرهم بما رأيتَ وسمعتَ ، وادعُهُم إلى الله ، لعل الله ينفعهم بك ويُؤْجِرك فيهم !!.. فإذا علمتَ أني ظهرتُ فتعال إليّ .

وعاد أبو ذر إلى قومه وعشيرته ، وعندما لقيه أخوه أنيس سأله عما رأى ، فقال أبو ذر: إني أسلمت وصدّقت .. وما أن لبث أن شرح الله صدر أخيه للإسلام ، وقال: ما لي رغبة عن دينك ، فإني قد أسلمتُ وصدّقتُ أيضًا .

وذهب الأخَوان إلى والدتهما ودعواها إلى الإسلام فأسلمت هي الأخرى .. وبدأت هذه الأسرة الغفارية المسلمة تدعو إلى الإسلام في قبيلة غفار حتى أسلم عدد كبير ، وأقاموا الصلاة بينهم . وجعل يحدّث أهل قبيلته عن النبيّ ودعوته التي تدعو إلى عبادة الله وحده ، وأن هذا الدين يهدي إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، واستطاع أبو ذر بذكائه وقوّة حجّته أن يقنع الكثيرين من قومه بالدخول في الإسلام .. ولم يكتفِ أبو ذر بقبيلته غفار ، بل ذهب إلى قبيلة " أسلم " ودعاهم إلى الإسلام ، فآمن منهم الكثيرون .

ولما قَدِمَ الرسول الكريم المدينة ، واستقرّ بِها ، جاء أبو ذر إلى المدينة ، ومعه موكب كبير من قبيلة غفار ومن قبيلة " أسلم " ، وقد أسلموا جميعًا ، وقد ازدادت دهشة النبيّ صلى الله عليه وسلم .. فعندما كان في مكة رأى رجلاً واحدًا من قبيلة " غفار " يعلن إسلامه وإيمانه فقال :[إن الله يهدي من يشاء] .. وهاهو اليوم يرى قبيلة غفار بأجمعها قد جاءت إليه مسلمة ، وكذلك قبيلة " أسلم " وقد هداهم الله على يد أبي ذر !!.. هؤلاء النا س الذين عُرِفُوا من قبل بأنهم عمالقة السطو وقطع الطرق ، قد تحوّلوا بفضل الإسلام إلى عمالقة في الإيمان !!..

عندما رآهم الرسول الكريم نظر إليهم نظرة حب وَوُد ، والسرور يشرق على وجهه الكريم ، ونظر إلى قبيلة غفار وقال : (غِفَارٌ غَفَرَ اللّهُ لها) .. ثم نظر إلى قبيلة " أسلم " وقال : (وأسلمُ سالمها الله) !!..

استمرّ أبو ذر في قبيلته يعلّم قومه دين الإسلام ، وبعد غزوة الخندق ، ذهب أبو ذر إلى المدينة ، وطلب من الرسول الكريم أن يأذن له في أن يقوم على خدمته ، فأذن

له .. وهكذا أراد الله تعالى لأبي ذر أن يقترب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن يتعلّم منه ويهتدي بهديه ، وينعم بصحبته ، ويتتلمذ على يديه ، ويتخلّق بأخلاقه

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُؤْثِرُهُ ويُكْرِمُهُ ، وكان يصافحه كلما لقيه ، ويبتسم ، ويُظْهِرُ سروره كلما رآه .. ولن ينسى المسلمون ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن أبي ذر عندما قال : (ما أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ ، ولا أَظَلَّتِ الخَضْرَاءُ أصدقَ لهجةً من أبي ذر) !!..

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقد عاش أبو ذر بمبدأ الصّدق في الجهر والعَلَن ، لم يغالط نفسه ، ولم يغالط غيره ، ولم يسمح لأحد أن يغالطه .. ولأن الرسول الكريم كان يدرك ببصيرته الثاقبة ما سيجرّه على أبي ذر صدقُه وصلابته ، فكان يأمره دائمًا بالصبر والأناة ..

وذات يوم سأل الرسول الكريم أبا ذر قائلاً : (يا أبا ذر ، كيف أنت إذا أدْرَكَكَ أمراءٌ يستأثرون بالْفَيْء ؟) ..
فأجاب أبو ذر : " إذًا والذي بعثك بالحق ، لأضْرِبَنّ بسيفي " .. فقال له الرسول الكريم :(أفلا أدلُّك على خيرٍ من ذلك ؟؟.. اصبر حتى تلقاني) !!..

وقرّر أبو ذر أن يحفظ وصية حبيبه ونبيّه ، فلا يحمل السيف الذي توعّد به الأمراء الذين يَجْرُونَ من مال الأمّة .. ولكنه قرّر أيضًا ألاّ يسكت عنهم لحظة من نهار ، وقال في نفسه : إن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهاه عن حَمْلِ السيف في وجوههم ، فإنه لا ينهاه عن أن يحمل في الحق لسانه البتّار .

ومن شدّة حب أبي ذر للرسول الكريم ، لم يُطِقْ الاستمرار في الإقامة بالمدينة المنوّرة بعد أن لَحِقَ الرسول الكريم بالرفيق الأعلى .. فرحل إلى الشام وأقام فيها أثناء خلافة أبي بكر الصّديق ، وكذلك في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وقد استراحت نفس أبي ذر وهدأت في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، الذي فرض على الولاة والأمراء وأغنيائهم في كل مكان ، الزهد والتقشّف والعدل الذي كان فوق طاقة البشر .. وكيف لا يهنأ أبو ذر وأمير المؤمنين عمر ، بروح مسئولية الحاكم الذي يخشى الله ، كان يحاسب الولاة والأمراء حسابًا عسيرًا لو بلغه أن أحدهم أكل نوعًا من الحلوى لا يستطيع عامة الناس شراءه ؟!.. إن مراقبة عمر بن الخطاب الصارمة للأمراء والولاة ، وتوزيعه العادل لمال المسلمين ، أتاحت لأبي ذر الطمأنينة والهدوء ، مما جعله يتفرّغ للعبادة والجهاد في سبيل الله .

ولكن شاءت إرادة الله أن يرحل عن الدنيا أعدل حكام الأرض ، عمر بن الخطاب تاركًا وراءه فراغًا كبيرًا .. واستمرّت الفتوح ، وزادت الخيرات التي جعلت الولاة والأمراء يتطلّعون إلى مناعم الحياة وترفها .. وهنا بدأ يشعر أبو ذر بالخطر ، فقد رأى أن الدنيا بزخرفها الباطل توشك أن تفتن الذين كل رسالتهم أن يرفعوا راية الله ، ويجعلوا من الدنيا مزرعة للأعمال الصالحات !!.. ورأى أن المال الذي جعله الله خادمًا للإنسان بدأ يتحوّل إلى سيّد مستبد في أيدي بعض أصحاب محمد الذي مات ودِرْعُهُ مرهونة !!..

وخرج أبو ذر بصدق الكلمة واللهجة ، وصدق الاقتناع ، إلى الأمراء والولاة والأغنياء ، الذين ركنوا إلى الدنيا ، وشكّلوا خطرًا على الدين الذي جاء هاديًا لا جابيًا ، ونبوّةً لا مُلْكًا .. ورحمة، لا عذابًا .. وتواضعًا ، لا استعلاءً ، وتكافؤًا ، لا

تميُّزًا ، وقناعةً ، لا جشعًا .. وراح ينشر معارضته في كل مكان ، حتى التفّ حول معارضته الكادحون ، حتى في البلاد التي لم يذهب إليها بعد .. حتى أصبحت معارضته تُهدّد مصالح ذوي السلطة والثراء !!.. ولم يكن يصعد جبلاً ، ولا ينزل سهلاً ، ولا يدخل مدينة ، ولا يواجه أميرًا إلاّ بكلمات يردّدها ويقول فيها :(بَشِّرِ الكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة بمكاو من نار تُكْوَى بها جباههم وجنوبُهم يوم القيامة)، حتى صارت هذه العبارة عَلَمًا على رسالته التي نذر لها حياته .. وبدأ أبو ذر رسالته هذه في أكبر المعاقل سيطرة ورهبة .. في الشام ، حيث " معاوية بن أبي سفيان " الذي كان يحكم أرضًا من أكثر بلاد الإسلام خصوبة وخيرًا ، وكان يعطي الأموال ويوزعها بغير حساب يتألف بِها الناس الذين لهم حظ ومكانة ، ويُؤَمِّنُ بِها مستقبله .

فلما أدرك أبو ذر هذا الخطر ، أسرع إلى الشام .. ولم يكد الناس العاديون يسمعون بمقدمه حتى استقبلوه في حماسة ، والتفّوا حوله .. وكان يصرخ في الملتفّين حوله قائلاً : (عَجِبْتُ لمن لا يجد القوتَ في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه) !!.. ثم يتذكّر وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر والأناة ، فيترك لغة الحرب ويعود إلى لغة المنطق والإقناع ، ويُذَكِّرُ الناس بأنهم جميعًا سواسية كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى .. وأن أمير القوم ووليّهم ، هو أول من يجوع إذا جاعوا ، وآخر من يشبع إذا شبعوا ..

ولقد بلغ خطره على الامتيازات الناشئة مداه ، يوم ناظر معاوية بن أبي سفيان على ملأ من الناس ، ووقف يسائل معاوية في جرأة وشجاعة ، عن ثروته قبل أن يصبح حاكمًا ، وعن ثروته اليوم !!.. وعن بيته الذي كان يسكنه بمكة ، وعن قصوره بالشام اليوم .. ثم يُوَجِّهُ للجالسين حوله من الصحابة الذين صحبوا معاوية إلى الشام

وصار لبعضهم ضياع وقصور ، ويصيح فيهم جميعًا : أفأنتم الذين نزل القرآن على الرسول وهو بين ظهرانيهم ؟؟!!..

ثم يجيب هو تساؤله ويقول : نعم أنتم الذين نزل القرآن فيكم ، وشهدتم مع الرسول المشاهد .

ثم يعود ويسأل : أوَلاَ تجدون في كتاب الله هذه الآية :[وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ ، وَ جُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم ، هَذَا مَا كَنَزْتُم لأَنفُسِكُم ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُم تَكْنِزُونَ] ؟؟!!.. " ٣٤ - ٣٥ التوبة " .

ويعترض معاوية قائلاً : لقد أُنْزِلَتْ هذه الآية في أهل الكتاب .

ويصيح أبو ذر : لا بل أُنْزِلَتْ لنا ولهم .

ويتناقل الناس أنباء هذه المناظرة في كل مكان ، فيستشعر معاوية الخطر ، وتفزعه كلمات أبي ذر ، ولكنه يعرف له قدره ، فلا يقربه بسوء ، ويكتب من فوره إلى عثمان رضي الله عنه يقول : " إن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام " .

ويكتب عثمان لأبي ذر ليعود إلى المدينة ، فيترك أبو ذر الشام بعد أن يودّعه أهلها خير وداع .

وبعد حوار طويل بين عثمان وأبي ذر ، ومن الأنباء التي عرفها عثمان عن مشايعة الناس لآراء أبي ذر أدرك خطورة دعوته ، فقرّر أن يُبْقِيَهُ في المدينة ، محدّداً إقامته ، وقال له : " ابْقَ معنا هنا بجانبي ، تغدو عليك اللّقاح وتروح " .

وقال أبو ذر : لا حاجة لي في دنياكم .

وطلب أبو ذر من عثمان أن يأذن له بالخروج إلى الرَّبذة ، فأَذِنَ له .. وكان يفزع حين يرى بعض المولعين بالفتنة باستغلال كلماته ودعوته لإشباع كيدهم ..

وحدث أن جاءه وفد من الكوفة " وهو في الرَّبذة " يسألونه أن يرفع راية الثورة ضد الخليفة ، فزجرهم بحسم وقال : (والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة ، أو جبل ، لسمعتُ وأطعت ، وصبرتُ واحتسبتُ ، ورأيتُ ذلك خيرًا لي .. ولو سيّروني ما بين الأفق والأفق ، لسمعتُ وأطعتُ ، وصبرتُ واحتسبتُ ، ورأيتُ ذلك خيرٌ لي) ..

وبذلك أطفأ أبو ذر نار الفتنة قبل أن توقد .. ولكنه كان يتمنى ألاّ يتولّى أصحاب النبيّ إمارة أو يجمعوا ثروة ، وأن يظلوا روّادًا للهُدَى ، فكان يُحَذِّرُ من إغراء الإمارة ويقول عنها : (إنّها أمانة ، وإنّها يوم القيامة خِزْيٌ وندامة ، إلاّ من أخذها بحقها ، وأدّى الذي عليها فيها) !!..

وتجنّب أبو ذر إخوانه من الذين وُلُّوا الإمارات وصار لهم الغنى والثراء .. وحدث أن لَقِيَهُ أبو موسى الأشعريّ يومًا ، وفتح له ذراعيه وهو يصيح فَرِحًا " مرحبًا أبا ذر .. مرحبًا بأخي " ، ولكن أبا ذر دفعه عنه وقال : (لستُ بأخيك ، إنما كنتُ أخاك قبل أن تكون واليًا وأميرًا) .. ولقيه أيضًا ذات يوم أبو هريرة ، واحتضنه مُرَحِّبًا ، ولكن أبا ذر أبعده عنه بيده وقال : (إليك عني .. آلَسْتَ الذي وُلِّيتَ الإمارة ، وتطاولتَ في البنيان ، واتّخذتَ لك ماشية وزرعًا)؟؟!!..

ومضى أبو هريرة يدافع عن نفسه ويبرّئُها من تلك الشائعات ..

وكان أبو ذر أستاذاً في التفوّق على مغريات الإمارة والثروة .. وحدث أن عُرِضَتْ عليه إمارة بالعراق فقال : (لا والله ، لن تميلوا عليّ بدنياكم أبدًا) ..

ورآه صاحب له يومًا يلبس ثوبًا قديمًا فسأله : أليس لك ثوب غير هذا ؟!.. لقد رأيتُ معك منذ أيام ثوبين جديدين .. فقال أبو ذر : (يابن أخي ، لقد أعطيتهما من هو أحوج إليهما مني)

فقال صاحبه : والله إنك لمحتاج إليهما .
فقال أبو ذر : (إنك لمعَظِّمٌ للدنيا .. ألستَ ترى عليّ هذه البردة ؟!..ولي أخرى لصلاة الجمعة ، ولي عنزة أحلبها ، وأتانٌ أركبها ، فأيُّ نعمة أفضل مما نحن فيه) ؟!..

ومن كلماته الطيبة التي قالها وهو يحدّث الناس :
(أوصاني خليلي بسَبْع .. أمرني بحب المساكين والدُّنُوّ منهم .. وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي .. وأمرني ألاّ أسأل أحدًا شيئًا .. وأمرني أن أصل الرحم .. وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً .. وأمرني ألاّ أخاف لومة لائم .. وأمرني أن أُكْثِرَ من : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله) ..
ويقول الإمام عليّ كرّم الله وجهه :" لم يَبْقَ اليومَ أحدٌ لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذر " !!..

وقد ضاق صدر أبي ذر بما رآه من إقبال المسلمين على أمور الدنيا ، وكان دائمًا ما يستنكر ذلك ، خاصةً في عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حتى استدعاه عثمان من دمشق إلى المدينة ، فلم يعجبه إقبال الناس على الدنيا ، فكان يندّد بِهم ، كما ضاق الناس بشدّته عليهم فشَكَوْا إلى عثمان بن عفان ، فأمره بالانتقال إلى قرية صغيرة تُسمَّى " الرَّبَذَة " .. فذهب إليها وأقام فيها مبتعدًا عن الناس ، وعاش زاهدًا مُؤْثِرًا الآخرة على الدنيا الفانية .

ومن مظاهر زهده في متاع الدنيا ، أن جاءه رجل في بيته ، فلم يجد فيه من متاع البيوت شيئًا ، فسأله الرجل : أين متاعكم يا أبا ذر ؟!..
فأجابه أبو ذر : لنا بيت هناك (يعني الآخرة) نُرْسِلُ إليه صالح متاعنا .
فقال الرجل :ولكن لابدّ لك من متاع الدنيا ما دمتَ فيها !!..

فقال أبو ذر : ولكن صاحب المنزل لا يتركنا فيه .

وحدث ذات مرّة أن أرسل إليه أمير الشام ثلاثمائة دينار ليستعين بِها على قضاء حاجته ، ولكن أبا ذر أعادها إليه وقال : أما وجد أمير الشام عبدًا أَهْوَنَ عليه مني ؟!.. وفضّل أن يعيش على زهده حتى وافاه الأجل في السنة الثانية والثلاثين من الهجرة .. وقبيل موته ، كانت زوجته تجلس إلى جواره تبكي ، فسألها : فيم البكاء والموت حق ؟!..
فقالت له : لأنك تموت ، وليس عندي ثوب يَسَعُكَ كفنًا !!..
فابتسم وقال لها : اطمئني .. لا تبكي ، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأنا عنده في نفر من أصحابه يقول : (لَيَموُتَنَّ رجلٌ منكم بِفَلاَةٍ من الأرض ، تشهده عصابة من المؤمنين) .. وكل من كان معي في ذلك الوقت مات في جماعة وقرية ، ولم يَبْقَ منهم غيري .. وهأنذا بالفلاة أموت ، فراقبي الطريق .. فستطلع علينا عصابة من المؤمنين ، فإني والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ .. وفاضت روحه إلى بارئها .. ولقد صدق .. فقد جاءت قافلة من المؤمنين ، وعلى رأسهم " عبد الله بن مسعود " ، ورأى جسدًا ممتدًا ، وإلى جواره سيدة وغلام يبكيان .. ورآه عبد الله بن مسعود ففاضت عيناه بالدموع ، ووقف على جثمانه الطاهر يقول : صدق رسول الله (تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبْعَثُ وحدك) !!..

وراح عبد الله بن مسعود يحكي لمن معه تفسير تلك العبارة فقال : " كان ذلك في غزوة تبوك ، سنة تسع من الهجرة ، وقد أمر الرسول بالاستعداد لملاقاة الروم ، وكانت الأيام حينئذ أيام عُسْرَة ، وكان الحرُّ شديدًا .. وخرج الرسول وصحبه ، وكان بعير أبي ذر ضعيفًا بتأثير الظمأ والجوع والحر ، وتلفّتَ القوم يومًا فلم يجدوا أبا ذر ، وقالوا : لقد تخلّف أبو ذر وأبطأ به بعيره .. ورأى أبو ذر أنه سيتخلّف عن

الرَّكب ، فنزل من فوق ظهر البعير ، وحمل متاعه على ظهره وأسرع على قدميه وسط الصحراء الملتهبة لكي يلحق بالرسول الكريم وصحبه .

وفي الغداة ، وضع المسلمون رحالهم ليستريحوا ، وبصُر أحدُهم شبح رجل يسير في اتجاههم ، فقال الرجل للرسول : يا رسول الله ، هذا رجل يمشي وحده على الطريق ..

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كُنْ أبا ذر) .

واقترب أبو ذر منهم وهو يقتلع خطاه من الرّمل الساخن ، وحِمْلُهُ فوق ظهره ، ولكنه فَرِحٌ لأنه لَحِقَ بالقافلة .. وحين عرفه رجل صاح : يا رسول الله ، إنه والله أبو ذر .

وما أن رآه النبيّ حتى ابتسم وقال : (يرحم الله أبا ذر .. يمشي وحده .. ويموت وحده .. ويُبْعَثُ وحده) !!..

وهاهو بعد عشرين عامًا ، يموت أبو ذر وحيدًا في فلاة الرَّبذة ، كما قال الرسول الكريم !!.

رضي الله عن أبي ذر الغفاري الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ • الأرض • ولا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ • السماء • من رجل أصدق من أبي ذر) !!..

حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِب

حمزة بن عبد المطلب ، هو عم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأخوه من الرضاعة .. كانت تجمع بينهما عاطفة القرابة ، ومودّة الصداقة ، وذكريات الطفولة .. وكان حمزة يعرف جوهر بن أخيه وعظمته وكماله ، ومعرفته بمحمد لم تكن معرفة العم فقط ، بل معرفة الأخ والصديق ، فقد كانا من جيل واحد ، وكم لعبا معًا وتآخيا معًا !!..

ورغم هذه الروابط القوية ، إلاّ أن اتجاه كل منهما في الشباب كان مختلفًا عن الآخر .. فقد كان حمزة يميل إلى نيل طيبات الحياة ، ويتطلّع إلى أن يكون يومًا من زعماء مكة وسادات قريش وفرسانها .. أما محمد ، فقد ابتعد عن ضوضاء الحياة إلى التأمّل العميق .

وجلس حمزة ذات يوم عند الكعبة مع نَفَرٍ من أشراف مكة ، وكانوا يتحدثون بقلق وهَمٍّ عن محمد وما يدعو إليه ، فضحك حمزة ورماهم بالمبالغة وسوء التقدير .. وقال أبو جهل : إن حمزة يعلم خطر ما يدعو إليه محمد ، ولكنه يُهَوِّنُ الأمر حتى لا تنهض قريش لمقاومة محمد ودعوته .. وكان حمزة يستمع إلى ما يُقَالُ عن محمد كلما جلس عند الكعبة ، وكان يبحث الأمر بينه وبين نفسه ، وهو الذي يعلم أكثر من غيره من هو محمد ، يعرفه من طفولته إلى شبابه إلى رجولته ، ويعرف أن محمدًا عاش نقيًا طاهرًا ، هادئًا قانعًا ، ثابتًا ورزينًا .. وكان حمزة في قرارة نفسه يشعر بصدق دعوة محمد ، ولكنه كان ينتظر ما يمكن أن تبيّن حقيقته الأيام .

وذات يوم كان حمزة عائدًا من رحلة صيد حيث كان يمارس هوايته التي يعشقها ، وذهب ليطوف بالكعبة قبل عودته إلى بيته .. وجاءته خادم لعبد الله بن جُدْعَان ، وقالت له : (يا أبا عُمَارَةَ ، لو رأيتَ ما لَقِيَ ابنُ أخيك محمد آنفًا من أبي الحَكَمِ بن هشام .. إذ وجده هناك جالسًا ، فآذاه وسبّه ، وبلغ منه ما يكره) ، وراحت تقص عليه ما فعله أبو جهل بمحمد .

وهنا تحرّكت النخوة في صدر حمزة ، ثم ثبّت قَوْسَهُ فوق كتفه ، وانطلق كالسهم ، وما أن رأى أبا جهل مع نفر من سادة قريش ، حتى هَوَى بِقَوْسِهِ على رأس أبي جهل فأدماه ، وصاح حمزة في أبي جهل : (أَتَشْتُمُ محمدًا ، وأنا على دينه أقول ما يقول ؟!.. ألا فَرُدَّ ذلك عليّ لو استطعتَ) !!..

وقام بعض الرجال لينصروا أبا جهل ، ولكن أبا جهل كان يعرف أن حمزة يستطيع أن يهزم هؤلاء الرجال جميعًا ، فقال لهم : دعوه ، فإني سَبَبْتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا .. وكانت الكلمة التي نطق بِها حمزة " أنه على دين محمد" قد نزلت نزول الصاعقة على الجالسين ، فأنستهم الدّم الذي يسيل من رأس أبي جهل ، وصُدِمُوا صدمة عنيفة .. لأن إسلام حمزة سَيُغْرِي الكثيرين على الاستجابة لدعوة محمد .. وبكل ثبات وهدوء ثبّت حمزة قَوْسَهُ فوق كتفه ، ثم ذهب إلى داره .. وجلس يفكّر ويراجع نفسه .. ويسائلها : هل أعلن إسلامه في لحظة غضب وانفعال وحَمِيَّة ، للدفاع عن ابن أخيه ، وعن شرف بني هاشم ؟!.. كيف أسلم وهو لم يعرف عن تعاليم الإسلام شيئًا بعد ؟!..

واستعمل حمزة عقله وضميره في بحث هذه القضية ، وأخذ يقارن بين الدين الجديد ودين الآباء والأجداد .. ثم أدركه بعض الندم على تسرّعه ، ولكن الشك بدأ يتطرّق إلى نفسه حول الدين القديم ، وذهب إلى الكعبة ، وتضرّع إلى الله أن يشرح صدره للحق ويُذْهِبَ عنه الشكوك ، فاستجاب الله له ، وذهب إلى محمد وقص عليه الأمر ، فدعا له النبيّ الكريم فشرح الله صدره للإسلام ، وهكذا أعزّ الله الإسلام بإسلام حمزة .. وكان إسلامه إغراء لإسلام الكثيرين من القبائل .. وبدأ الناس يدخلون هذا الدين أفواجًا .. ونذر حمزة حياته لله وللإسلام فلقّبَهُ الرسول الكريم بلقب (أَسَدُ الله ، وأَسَدُ رسوله) .

وكان عمر بن الخطاب قد علم ما حدث بين حمزة وأبي جهل ، وعجب لبطش حمزة بأبي جهل الذي تخاذل أمام حمزة ، وعرف أن سادة قريش سيرهبون حمزة بعد ما فعله بأبي جهل ، وأن أصحاب محمد سيرتفع شأنهم بإسلام حمزة .. وأقسم أن يذهب إلى دار الأرقم على الصفا ويقتحمها ، ويقتل محمدًا أمام حمزة بن عبد المطلب ، وإذا حاول حمزة الدفاع عن محمد فسوف يبارزه عمر حتى يقتله هو الآخر .

وفي طريقه إلى دار الأرقم شاهرًا سيفه ، قابله أحد أصحابه وسأله عن وجهته ، فقال إنه ذاهب إلى محمد ليقتله .. فقال له صاحبه : والله لقد غرّتكَ نفسُك عن نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمدًا ؟!.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟!..فقال عمر : وأيّ أهل بيتي ؟!.. فقال صاحبه : ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد آمنا بمحمد ودعوته ، فعليك بهما .

واشتط غضب عمر ، وانطلق إلى دار أخته ، وعند الباب سمع ترتيلاً غريبًا بصوت رجل غريب ، فقرع الباب بشدّة ، وفتح له سعيد الباب فاندفع عمر وقال لهما : لقد أُخبِرْتُ أنكما تابعتما محمدًا .. وضرب سعيدًا بمقبض سيفه فسال دمه ، فقامت أخته تمنع أخاها عن زوجها ، فضربها عمر وشجَّ رأسها .. وبقوّة الإيمان انتفضت أخته وقالت له متحدّية : نعم ، تابعنا محمدًا ، فاصنع ما بدالك ..

فتعجّب عمر ، وتخاذلت قواه عندما رأى أخته تفتح ذراعيها وتتهيأ لطعنة من سيف عمر ..فغلبه حنانه بعد أن رأى الدّم يسيل من رأس أخته ، وابن عمه مُلْقَىً على الأرض ، فطلب عمر أن تُرِيَهُ ما كانت تقرأ .. ولكنها أَبَتْ إلاّ بعد أن يغتسل .. وقام عمر فاغتسل ، وبدأ يقرأ :

[طَهَ ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى] " ١-٣ طه " ..

ثم قال : ما أحسنَ هذا الكلام وما أكرمَه !!..

عندئذ خرج الرجل الذي كان مختبئًا ، وقال لعمر : " يا عمر ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه ، فإني سمعته أمس يقول : اللهم أيّد الإسلام بأحد العمرين ، أبي جهل عمرو بن هشام ، أو عمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر " !!..

وانطلق عمر من فوره إلى دار الأرقم على الصفا ، وقرع الباب بعنف ، فنظر رجل من خلال الباب المغلق ، ولكنه عاد فَزِعًا ، وقال : هذا عمر متوشّحًا سيفه !!..

فقال حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمد : ائذن له .. فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه ... واستعدّ حمزة لقتال عمر ، الذي كان من أقرب أصدقائه !!..

ولكن محمدًا أراد ألاّ يستعلي عمر بقوّته بعد اليوم ، ولهذا قرّر أن يقهر بنفسه عمر بن الخطاب .. وما أن دخل عمر ، حتى نهض محمد للقائه وأخذ بخناقه ، وجذبه بشدّة جعلت عمر ينحني بقامته حتى اقترب من الأرض ، وقال له بحزم : (ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أراك حتى ينزل الله بك قارعة) .

وإذا بعمر يقول بصوت خافت : " يا رسول الله ... "

وبُهِتَ الحاضرون .. ثم أكمل عمر قائلاً : " جئتُك لأشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله " .. وصاح محمد متهللاً (الله أكبر) وردّدها حمزة والحاضرون في فرح وغبطة .. وراح محمد يمسح على صدر عمر ويدعو له بالثبات ، وارتفع الهتاف ، وملأت الفرحة قلوب الجميع ، فهاهو حمزة ومعه عمر ، وهما أشجع فارسيْن في مكة ، قد أعزّ الله بِهما الإسلام !!..

وأبَتْ شجاعة عمر إلاّ أن يغيظ أبا جهل .. ففي طريق عودته إلى بيته ، مرّ على دار أبي جهل وقرع الباب ، فلما فتح له أبو جهل مُرَحِّبًا قال : مرحبًا وأهلاً يابن أختي .. ما جاء بك ؟

فقال عمر : " جئتُ لأخبرك أني صدّقتُ بما جاء به محمد " ، فضرب أبو جهل الباب في وجهه صارخًا: قبّحك الله وقبّح ماجئتَ به!! ، وطوال الطريق ، ما ترك عمر أحدًا إلاّ أخبره بإسلامه .

وذُهِلَ الناس في اليوم التالي حين رأوا محمدًا يسير وحمزة عن يمينه ، وعمر عن يساره .. ثم ذهب عمر وحده إلى الكعبة ، وأعلن على الملأ أنه آمن بمحمد ، فاجتمع الناس على قتاله ، فظل يقاتلهم حتى غابت الشمس !!..

ولما رأى أبو جهل حمزة يقف مع المسلمين ، راح يُحَرِّضُ أهل قريش لإيذاء محمد وصحبه ، ويدعو لحرب ينتقم بها من محمد وأصحابه ، ويقضي على هذه الدعوة الجديدة التي أصبحت خطرًا على سادة قريش ونفوذهم .

ومنذ أسلم حمزة نذر كل بأسه وقوّته وحياته لله وللإسلام حتى لقّبه الرسول الكريم بلقب : (أَسَدُ اللهِ وأَسَدُ رسوله) ..وجعله أميرًا على أوّل سَرِيَّةٍ خرج فيها المسلمون للقاء العدوّ ، وعقد له أوّل راية عقدها الرسول لأحد من المسلمين .. وفي غزوة " بدر " صنع حمزة الأعاجيب .. حتى هُزِمَتْ قريش ، وعادت إلى مكة تجرّ أذيال الهزيمة المنكرة ، ورجع أبو سفيان كسير القلب ، مُنَكَّسَ الرأس ، وقد ترك على أرض المعركة جُثَثَ سادة قريش ، من أمثال أبي جهل ، وعُتْبَة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأُمَيَّة بن خلَف ، وعُقْبَة بن مُعَيْط ، والأسود بن عبد الأسد المخزوميّ ، والوليد بن عتبة ، والنضر بن الحارث ، والعاص بن سعيد ، وطعمة بن عَدِيّ ، وغيرهم عشرات من فرسان قريش وصناديدها .

ولم تسكت قريش على هذه الهزيمة الساحقة ، فراحت تُعِدُّ الْعُدَّةَ لتثار لشرفها ، وصمّمتْ على الحرب .

ولما جاءت غزوة " أُحُد " خرجت قريش على بكرة أبيها ومعها حلفاؤها من قبائل العرب ، بقيادة أبي سفيان .. وكان هدفهم الأساسي من هذه المعركة ، هو

الانتقام من محمد وحمزة ، والقضاء عليهما معًا .. ولقد وكّلوا أمر حمزة لعبد حبشيّ اسمه " وَحْشِيّ " ، وكان ماهرًا في إصابة الهدف بالحربة ، ووعدوه بعتقه وحرّيته إن قَتَلَ حمزة .. ثم أحالوا عليه " هند بنت أبي عُتْبَة " وزوجة أبي سفيان ، التي أخبروها بأن حمزة هو الذي قَتَلَ في " بدر " أباها وعمّها وأخاها وابنها .. من أجل ذلك كانت هند أشدّ القرشيات حقدًا على حمزة ، وتحريضًا على الحرب ، لتظفر برأس حمزة مهما كان الثمن ، ولقد أعطت وعدًا لوَحْشِيّ بأغلى ما تملكه المرأة من متاع وزينة إن قَتَلَ حمزة .

وفي غزوة " أُحُد " توسّط حمزة أرض المعركة ، وعلى صدره ريشة النعام التي تعوّد أن يُزَيِّنَ بها صدره أثناء القتال .. وراح حمزة يصول ويجول ، يضرب الرءوس بسيفه فتتهاوى رأسًا رأسًا ، وقارب المسلمون النصر لولا أن الرماة تركوا أماكنهم فوق الجبل ، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا الغنائم فانقضّ عليهم المشركون .. وكانت المفاجأة قاسية .. ورأى حمزة ما حدث فضاعف بلاءه واستبساله ، وكان " وَحْشِيّ " يرقبه وينتظر الفرصة المناسبة ليصوّب إليه حَرْبَته .

ويحكي " وحشيّ " عن هذا الموقف فيقول : (.. وكنتُ رجلاً حبشيًا ، أقذفُ بالحَرْبَة قَذْفَ الحبشة ، فقلّما أخطئ بها شيئًا ، فلما التقى الناس خرجتُ أنظر حمزة وأتبصّرُه حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يَهُدُّ الناس بسيفه هدًّا ، ما يقف أمامه شيء .. فوالله إني لأتهيّأُ له ، أريده وأستترُ منه بشجرة ليقترب مني ، إذ تقدّمني إليه " سباعُ بن عبد العُزّى " ، فلما رآه حمزة صاح به : هَلُمَّ إليّ يا ابن مُقَطِّعَةِ البُظُور ، ثم ضربه فما أخطأ رأسه .. وعندئذ هززتُ حَرْبَتي، ثم دفعتها فوَقَعَتْ في ثُنَّتِهِ حتى خَرَجَتْ من بين رجليه .. ونَهض نحوي ، فغُلِبَ على أمره ثم مات .. وأتيتُه فأخذتُ حربتي .. ولما قَدِمْتُ مكة أُعْتِقْتُ ، ثم أقمتُ بها حتى دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، فهربتُ إلى الطائف ... فلما خرج وفد الطائف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لِيُسْلِمَ ، قلتُ لنفسي : أَلْحَقُ بالشام أو اليمن أو سواها.. فوالله إني لفي همّي إذ قال لي رجل : وَيْحَكَ !!.. إن رسول الله ، والله لا

يقتلُ أحدًا من الناس يدخل دينه .. فخرجتُ حتى قَدِمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرني إلاّ قائمًا أمامه أشهدُ شهادة الحق . فلما رآني قال : أَوَحْشِيٌّ أنت ؟.. فقلتُ : نعم يا رسول الله ..قال : حدِّثني كيف قتلتَ حمزة .. فحدّثْتُه .. فلما فرغتُ من حديثي قال : وَيْحَكَ .. غَيِّبْ عني وجهك .. فكنتُ أتجنّبُ طريق رسول الله حيث كان ؛ لئلاّ يراني حتى قبضه الله إليه ... فلما خرج المسلمون إلى مُسَيْلِمَةَ الكذّاب صاحب اليمامة ، خرجتُ معهم ، وأخذتُ حَرْبَتِي التي قتلتُ بِها حمزة ..فلما التقى الناس ورأيتُ مسيلمة الكذّاب قائمًا ، وفي يده السيف ، تَهيّأتُ له ، وهززتُ حربتي ثم دفعتها عليه فوقَعَتْ فيه ، فإن كنتُ قد قتلتُ بحربتي حمزة وهو خير الناس .. فإني لأرجو أن يغفر الله لي إذ قتلتُ بِها شرَّ الناس ، مسيلمة) ..

وبعد أن سقط حمزة ، أسدُ الله وأسدُ رسوله شهيدًا .. لم يكتف أعداؤه بمقتله ، بل طلبتْ هند بنت عقبة " زوجة أبي سفيان " من " وحشيّ " أن يأتِيَ لها بكبد حمزة .. واستجاب لها وحشيّ وأتى بكبد حمزة ، فتناولتها وراحت تمضغها ، لكي تشفي غليلها وحقدها ..

ولما انتهت المعركة ، وعاد المشركون إلى مكة ، نزل الرسول وأصحابه إلى أرض المعركة ليرى شهداءها .. ثم وقف فجأة .. ونظر ، فوَجَمَ وضغط على أسنانه ، وأسبل جَفْنَيْه .. وهاله أن يهبط الْخُلُقُ العربيّ إلى هذه الوحشية البشعة ، فيُمَثِّلَ بجثمان ميّت على هذه الصورة التي رأى فيها جثمان عمّه الشهيد " حمزة " !! .. وفتح الرسول عينيه ونظر إلى جثمان حمزة وقال : (لَنْ أُصابَ بِمِثْلِكَ أبدًا .. وما وقفتُ موقفًا قطّ أَغْيَظَ إليّ من موقفي هذا) !!.. ثم التفت إلى أصحابه وقال : (لولا أن تحزن صفية " أخت حمزة " ويكون سُنَّةً من بعدي ، لتركته في بطون السّباع وحواصل الطير ، ولَئِنْ أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن ، لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم) فصاح

أصحاب رسول الله : (والله ، لَئِنْ أظفرنا الله بهم يومًا من الدّهر ، لَنُمَثّلَنّ بهم ، مُثْلَةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب) !!..

ولم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ من وعيده حتى نزل عليه الْوَحْيُ بقول الله تعالى :[ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ، وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ] .. "١٢٧-١٢٥ النحل".

ونزلتْ هذه الآيات الكريمة كأعظم تكريم لحمزة الذي استُشْهِدَ في سبيل الله .. ولم يجد الرسول تحية يُوَدِّعُ بها حمزة خيرًا من أن يصلّي عليه بعدد شهداء المعركة جميعًا .. فكان الرسول يصلّي على كل شهيد وعلى حمزة معه حتى صلّى على عمّه سبعين صلاة .

وأثناء عودةِ الرسولِ الكريم إلى بيته ، سمع نساءَ بني عبدِ الأشْهَلِ يبكين شهداءَهن ، فقال عليه الصلاةُ والسلامُ : (لكنّ حمزةَ لا بَوَاكِيَ له) !!.. فسمعها سعدُ بنُ مُعَاذ فظنّ أن الرسولَ يطيبُ نَفْسًا إذا بكت النساءُ حمزةَ فأَمَرَهُنّ أن يبكين حمزةَ ، ولكنّ الرسولَ الكريمَ خرج إليهن وقال : (ما إلى هذا قصدتُ ، ارجعْنَ يَرْحَمُكُنّ الله ، فلا بكاءَ بعد اليومِ) !!..

وخيرُ رثاءٍ عطّر ذكرى حمزة ،كانت تلك الكلماتِ التي قالها الرسولُ حين وقف على جثمانه بين الشهداءِ وقال : (رحمةُ اللهِ عليك ، فإنك " كما علمتُ " وَصُولاً للرّحمِ ، فَعُولاً للخيراتِ) !!..

رَحِمَكَ اللهُ ورَضِيَ عنك يا حمزة بن عبد المطلب ، يا أسدَ اللهِ وأسَدَ رَسُولِه !!.

الـفـهـرس :

(كُتُب تحت الطبع للمؤلف)

عَـرَفْـتُ اللّـهَ ، فَـأَحْـبَـبْـتُـه !!..(الثمن مُدَعّمٌ)

التّيسيرُ مَأرَبي .. في تَفْسـيرِ القُـرْطُبي .. (الثمن مُدَعّمٌ)

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

" الطبعة الأولى "

رقم الإيداع ١٨١٧٧ / ٢٠٠٢